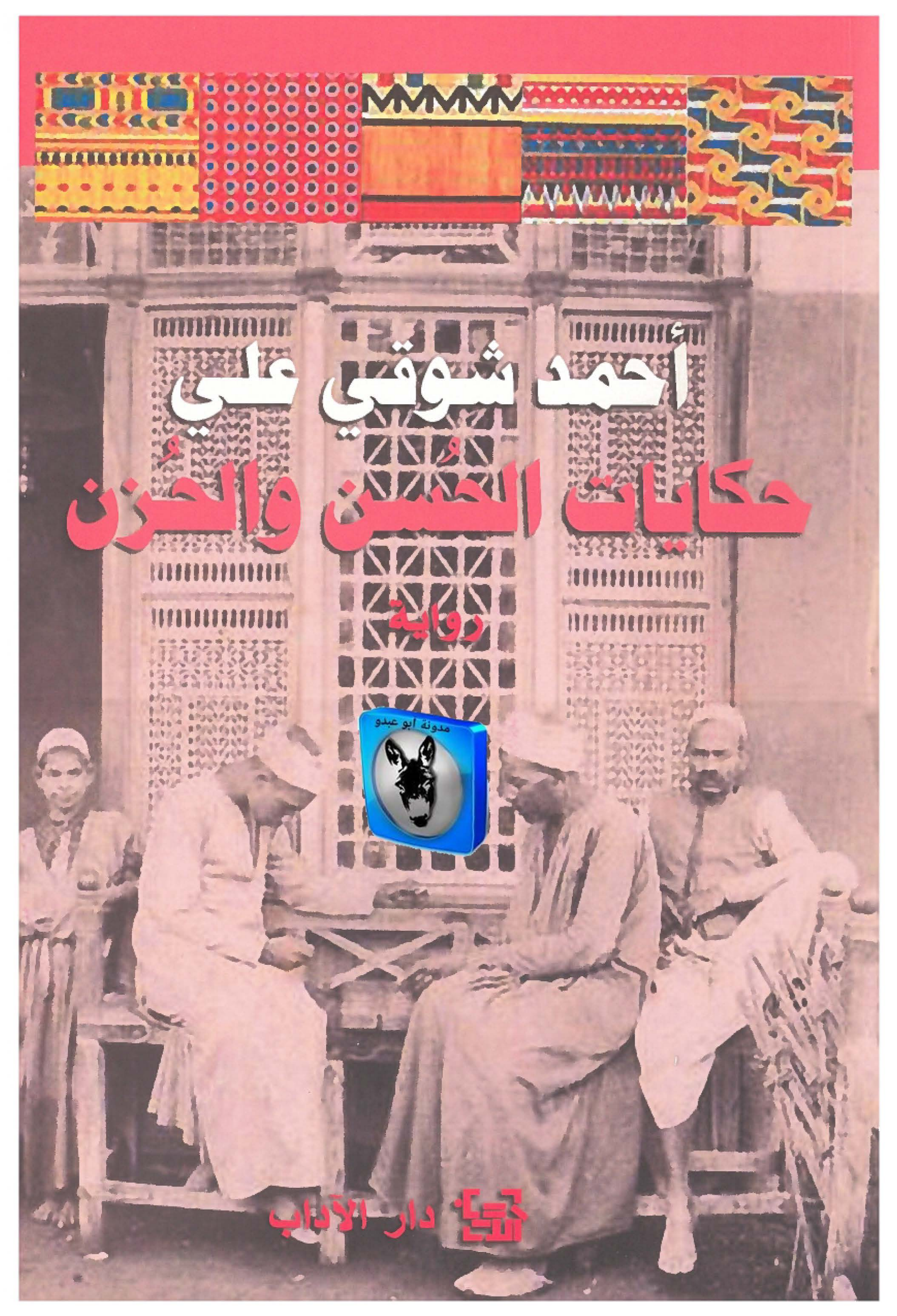

أحمد شوقي علي
حكايات الحُسن والحُزن
رواية
مدونة ابو عبدو
دار الآداب

حكايات الحُسن والحُزن

أحمد شوقي علي

حكايات الحُسن والحُزن

رواية

دار الآداب ـ بيروت

حكايات الحُسن والحُزن

أحمد شوقي علي / كاتب مصري
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-478-2



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com







daraladab.com

إهداء

أمّي يا «سِلسْلا» الجميلة. . . أتذكرين الحكاية؟. .

«أمّنا الغولة طقطقي الفولة، بتعملي إيه؟». . . ما زلت كلّما تذكّرت تلك الحدّوتة سمعت صوتك تغنّين، الآن أردّ على الغناء: الغناء : يا بير يا بير إدّيها دهب كتير، زيّ قلبها الدهب يا بير.

***

شيرين. . يقولون في المثل «زيّ الحلّة وغطاها»، وعن جهل يضربه الناس سخريةً، فهل ستقبلينه منّي إذا قلته جادًّا؛ لست مكتملاً من دونك يا حبيبتي، ومثلي هذه الرواية التي بذلتِ فيها إلهامًا وإرشادًا يفوقان مجهودي.

في «أورانيا» هناك شخصيّة؛ شابّة هنديّة أسميتها «ليلى» تعيش على ضفّة بحيرة أوراندينو، هي موجودة حقًّا، ولها حياة حقيقيّة، وهي تحاول الإفلات من زوجها «إيفان» الرهيب؛ وهو موجود حقيقة. لكن كلّ شيء انطلق بالنسبة لي من قارب كان يعبر ما بين «بنزانس» وجزر «سورلينج» في طفولتي البعيدة، ولم أكن سأكتب عن هذه المرأة أو عن البحيرة، أو عن الأشغال الشاقّة التي يجبر عليها الأطفال، بدون هذا الخيط من الذاكرة.

«لوكليزيو»

تنويه

جميع النصوص الواردة بخطّ مائل، لم تصدر عن خيال «غريب» الإبداعي، وإنّما هي نصوص لكتّاب عظام، رأى في ذكرها زينة لحكاياته.

ولمّا كان ذكر أسماء هؤلاء المبدعين ـ جميعهم ـ عصيًّا على «العفريت»، وكان ذلك بسبب النسيان ـ قاتله الله ـ، فإنّه قد قرّر إسقاطها؛ فهي، برأيه، الوسيلة الوحيدة ـ للمهتمّين من أمثاله ـ لمحاربة النسيان؛ إذ هم بذلوا الجهد المناسب في التوصّل لمعرفة أصحاب تلك النصوص.

مدخل

ظلامٌ بلون الحزن، وليلٌ صار ليلين بانقطاع الكهرباء؛ علّها تولد الآن «جنِّيّة الأحلام»!

* * *

الوقت صيف، والهواء لا يتحرّك، وبسبب الحزن توقّفت المروحة عن الدوران، لذلك خلع الشابّ جلبابه الصيفي القصير، وجلس بسرواله فقط. كان وحيدًا في غرفته.

لعلّه في البدء قارن بين ضامرة المنكب ومكسورة العُذرَة، ترى من منهما تدخل عليه الآن؟ تتسحّب في الظلام. تخلع ثيابها هي الأخرى بفعل الحرّ والفراغ والاقتصاص من قطر الزواج الذي لن يجيئها أبدًا.

قال لنفسه «مكسورة العذرة منذ زمن بعيد» بالتأكيد هي الأكثر جرأة، بل لا بدّ أنّ سمسمها المقشور يحنّ إلى آكله، فمن المؤكّد

أنّه قد ملّ هشهشات أصابعها وثمرات الخيار والكوسى والموز، كلّهم بلا أسنان ولا يستطيعون الأكل، السمسم يحتاج غربال بنبض من لحم ودم يبثّ فيه الحياة.

قال الشابّ «مكسورة العذرة هي الآن من تتسحّب في الظلام»، تقترب منه وهو غارق في التفكير بحيث لا يرى لمعة جلدها الأسمر أو يشمّ رائحة عرقها الحزين المتوتّر، ستأتي، وبخفّة، ستضع يدها على ثمرته؛ هنا بالضبط سيتواطآن سويًّا، سيتّفقان في صمت؛ هو تمثالٌ سيتّفق، وستتّفق «أنا جنِّيَّة الأحلام خرجتُ من اللا شيء».

.. ليتهما قد اتّفقا بأيّ شكل آخر؛ هو تمثالٌ، وهي: نمرة، مراهقة صغيرة، قطّة، أرنبة، طحلب ينمو على تمثال، شجرة لبلاب، رغوة صابون، زيت شعر، كيس بلاستك، أيّ شيء.. أيّ شيء غير جنِّيَّة أحلام!

جنِّيَّة الأحلام وقد خرجت، لم تخرج من اللاشيء، لكنّها خرجت كأيّ مولود جديد، من رحم السماء الحزينة خرجتْ، وتشكّلت كما أراد الشابّ: بفستان أبيض شفّاف ستتّخذه لباسها الأبدي، وبشفاه من الكريز، تمامًا كما أراد لثمرته أن تتذوّق.

ولدت الجنِّيَّة كأيّ أسطورة؛ كأسطورة الحساب ـ مثلاً ـ التي من أجلها خُلقت الجنّة والنار، ثم خلقت الأرض قابلة لأن تُرتكب عليها المعاصي الموصلة للنار والطاعات الموصلة للجنّة، ولأجل الطاعات خُلقت الملائكة من نور، وكذلك خُلق إبليس من نار، ليس فقط ليكون رمزًا للسيّئات، ولكن حتى لا يسجد لآدم

الذي سيخلق من تراب.. وحتى تكون هناك حياة؛ تخرج الوَلّادة من ضلع والد لم تلده بطنها، وحتى تعمر الأرض نبتت في الجنّة شجرة تفّاح، وحتى يكون هناك موت ثم بعث يقتلُ قابيلُ أخاه هابيل، ويتحلّل الخلود إلى موت وحياة، وقبل قتل هابيل يُخلق الكره الذي يؤدّي إلى القتل؛ وحتى يكون هناك عدل يكون هناك أنبياء، وحتى يولد الأنبياء يُصاب الناس بداء النسيان... وهكذا تدور الساقية محمّلة بجرار الحكايات: ماء يصبّ في نهرٍ شطّه مرسى: «الحساب».

حتى إذا اقتضى الأمر ذات يوم لوجود جنِّيَّة أحلام؛ يذهب رجل في بعيد الزمان ليضع عهدة من المال في يد «كامل»، الفتى ذي العيون الزرقاء، المولود «ألثغ» في حرف الكاف، والذي يسمع اسمه «خامل» بدلاً من «كامل» فيصير ينطق اسمه كما يسمعه، ويستبدل الذي هو أبقى بالذي هو شرّ.

ولخامل يكون عمّ طامع في إرث ابن أخيه، وها هي فرصةٌ تجيئه من السماء، لكنّه لا يكتفي فقط بتدبير ضياع العهدة من «خامل» وتلفيق الموضوع على أنّ ابن أخيه سرق. بل يأخذ الرجال ويذهب ليكمن له أمام المنزل الكبير بعد أن يصنعوا له في الأرض حفرة ليقع فيها.

قبل ذلك بيوم ـ في المساء؛ في حلمه، يرى «خامل» أخاه الصغير يجلس على شاطئ الترعة، قبل المَعَدّية، حتى إذا بزغ خامل من بعيد، يهبّ ـ مذعورًا ـ يهرول باتّجاهه... إرجع يا خامل. إرجع! عمّك عبد الصمد يكمن والرجال أمام البيت!

إرجع وإلّا قتلوك!

هذا بالضبط ما سيفعله «خامل» في يوم الكمين، سيهبّ من نومه مقرّرًا ترك البلد، وسينتظره أخوه حتى فجر اليوم التالي عند الترعة بجوار المعدّية ولن يأتي، وسيجلس عمّه عبد الصمد بين رجاله حتى يغفو ويفضح شخيره اختباءهم. . لكن ذلك لن يهمّ، فالغائب أبدًا لن يأتي.

* * *

ابن آدم، إنّما أنت أيّام، كلّما ذهب يوم ذهب بعضك!

هل تستطيع التدخين؟

أنا لا أستطيع التدخين.. يا لها من حياة!

لا أستطيع إلّا مراقبة الخَضَار، الصفاء، البياض، الاحمرار، البحر، الهوام ـ لا تلدغني الهوام، النسيم، الصور!..

هذه الصورة القديمة جامعة لأفراد أسرتي.. وهذه جامعة لأصدقاء العهد القديم.

نظرت إليهما طويلاً حتى غرقت في الذكريات، جميع الوجوه مشرقة ومطمئنة وتنطق بالحياة، ولا إشارة واحدة ولو خفيفة إلى ما يخبئّه الغيب، وها هم قد رحلوا جميعًا، فلم يبق منهم أحد. فمن يستطيع أن يثبت أنّ السعادة كانت واقعًا حيًّا، لا حلمًا ولا وهمًا؟

حكاية خامل

أنا «غريب». . العفريت «غريب»، وأنتم؟. . . هل تحبّون الجوّافة؟

* * *

«خامل» وقد خرج من قريته ـ لا يعرف إلى أين يتّجه ـ ذهب ناحية البحر.

مَشَى كثيرًا؟ . . . لا يعرف! لكنّه مشى.

النيل ساعتها كان زورقًا من فيروز، فخامل يحبّ لون «الفيروز»، ويحبّ أيضًا ـ مثل الناس ـ تسمية النيل بالبحر.

«النبي موسى، كان سيناويًّا بحقّ، يعرف متى البحر يجزر ومتى يمدّ»، وخامل «البحراوي»، الذي رأى النيل لأوّل مرّة في حياته، ضحك كثيرًا حتى بكى. . جدّه الأوّل كان اسمه موسى، وهو شيخ منسر. كم حكت له «مسعدة» عن موسى الذي وزّع

الرعب والرهبة على أهل القرية كما السماء توزّع الأمطار على الزرع. . حتى بعد موته!

هو نفسه ذات ليلة، وكان لا يزال طفلاً، تأخّر قليلاً بعد العشاء. كان الوباء الدائر في تلك الأيّام «خطف العيال»، وفي تلك الليلة قابل بعض رسله، وما إن همَّ أحدهم بمعاجلته من خلاف ولفّه بالجوّال، حتى استوقفه آخر محذّرًا. . يدك والولد، ألا تعرفه! إنّه من أولاد موسى!

ولمّا عاد خامل بالخبر لمسعدة، لم تتعجّب من أولاد السوء رسل الوباء. . . جدّك يا خامل كان يسرق الغيط وغلّته ومواشيه بمفرده ويفرّ إلى البحر، تنتظره هناك على شطّه عفريتة من الجنّ ـ كانت تحبّه، فتحمله وتشقّ به دون سفينة.

فضحك خامل حتى البكاء واستقبل زورق الفيروز وعبر إلى البرّ الثاني.

* * *

أكرّر. . أتحبّون الجوّافة؟

هذه أرض الجوّافة، هجرها الناس على مرّتين ـ وكان ذلك منذ زمن بعيد ـ؛ الأولى بعد أن ضرب نيزكٌ سوق الحرفيين، والثانية بعدِ أن صرت عفريتًا.

أرض الجوّافة جنائن كثيرة على اليسار وعلى اليمين، ومنتصفها ترعة، بيتي كان على يمين الترعة قبل أن تتمّ إزالته على يد سكّانه الذين هجروه.

خرج كلّ ساكنْ منهم فاستعمر جنينة وبنى فيها منزلاً من الطين، لم يكن هناك غير الذكور والجوّافة، لن تصدّقوني إذا قلت لكم إنّ بعض الرجال قد قرّروا أن يجامعوا الجوّافة بصفتها الأنثى الوحيدة في المكان، لكن هذا قد حدث فعلاً. في البدء كان الأمر محض شهوة، ومع بعض الإلهام وخطوات الجنون الأولى

التي تدفع للاختراع، داوم بعض الرجال على جِماع الجوّافة لعلّها تلد، وبعضهم كان يصنع حفرة بالتربة ويضع فيها ما تيسّر من مائه ثم يغلقها ويواظب على ريّها علّها تنبت أنثى يومًا ما، لكن بعض العباقرة ـ منهم ـ قد أصابهم الشكّ في طرح النبتة. . ربّما قد تطرح ذكرًا آخر «فلا يزيدون الطّين غير بلَّة»، فقرّروا التوقّف، جميعًا، عن ذلك.

أقول لكم، مع مرور الوقت، حدث يومًا أن اتّفق الرجال، فغفوا دفعة واحدة في أكواخهم، فخرجت منِ كلّ رجل أنثى، وفور أن استيقظوا، أحبّ كلّ رجل أنثاه فتزوّجا وأنجبا أطفالاً.

ليت ذلك الذي صار!

ما حدث أنّ الرجال بعد أن أيقنوا الفشل، قرّروا هجران أرض الجوّافة للأبد، وخلت الجنائن إلّا منّي والجوّافة. . . وأنتم هل تحبّون الجوّافة؟

* * *

لو كانت هنا ـ الآن ـ لأحضرت لها زهرة وقطعة شوكولاتة.

أحبّها جدًّا.

هي ليلة واحدة قضيناها.

الآن، لست نادمًا على موتي الأوّل.

«هي ليلة واحدة». .

أشرت إلى نجمتين بصدرها، وقلت: هذه لوزة وتلك بندقة، قالت: لم؟ قلت لأنّ لوزة بها حسنة، فهي لوزة، وبندقة ليس بها حسنة فهي بندقة. قالت: يا سلام!

كانت ليلة واحدة، وعندما استدارت، أشرقت شمسان أسفل ظهرها، قلت: أمّا تلك ف «خوخة»، قالت: لم؟ قلت لأنّها جميلة وناعمة فهي خوخة. . أنت جميلة وناعمة مثل الأطفال، قالت: يا سلام! . .

* * *

أمّ خامل في البلدة البعيدة قرب البحر، تُدعى مسعدة، وهي جميلة، زرقاء العينين، أشقرُ شعرها لن يتبدّل لونه أو يشيخ مهما عاشت، جسدها أبيض كالخميرة. وهي مُسعِدة وليست مُسعَدة، أمّ لخامل وأخوته: إخلاص وسيّدة وسالم، لمّا وَلدتْ سالم كان اسمه جابر على اسم جابر ابن حزينة جارتها، وَلدتا في الليلة نفسها وسمَّتا الذكرين جابر وجابر، ولكن جابر ابن حزينة مات صبيًّا، فأبدلت مسعدة جابر اسمه بسالم، لأنّ دوره في الحياة أن يظلّ حبيسًا بين الإسمين، ولأنّ دورها في الحياة أن تكون مُسعِدة؛ تسعد الآخرين وليست مُسعَدة. وفي اليوم الذي أتيح لها أن تتخلّى عن اسمها ساعة، قرّرت الدعاء على عبد الصمد «يا ربّ لا تقرنَّ عيونه بالولد، وليبقَ بِهَمٍّ البنات أبد الدهر في كمد»، وقالت أجلسوني قرب الباب في الشمس، ابني هناك في الشمس. . . «***هوّه اللي غاب ده كان لي مين، هوّه اللي يدعي***

وأقول أمين، وعنيه حواليّا ملوك حايمين، يرحل بعيد عنّي وألقاني، عاوزا أعوم وإديا مش عايمين، النخل طاطا في وداع لما به عدّيت، عدّدْ على ـ دلّوني عاد ـ ولا ما هوش عدّيد، هجّت بيوت الناحية والملقة إِلَيْ، صرخت عليْ، والصمت كان صوته كما الزغاريد».

* * *

لولا فراقها ما كنت أحكي حكاياتٍ حزينة!

في هذه الغرفة في هذا البيت المنهدم، كانت بيننا ليلة. .

كنت وزملائي ـ من هدموا البيت لاحقًا ـ نسكن بعيدًا عن سوق الحرفيين، وذات يوم جاء بها مالك البيت إلى أرض الجوّافة، وكانت هي الساكنة الجديدة. . وكان الرجال لا يعرفون النساء، ولا يعرفون الحكي والكلام.

الرجال فقراء وأنا معهم فنسكن ذلك البيت البعيد، نتكبّد عناء السير ذهابًا وإيابًا، ونعمل ليل نهار ولا نتكلّم، فقط نعمل، فلا نتزوّج لأنّنا لا نعرف الكلام.

جاءت هي والليل معها. . الليل معها لم يكن حزينًا، كان ذا حلاوة في بدايته ونهايته، عرفنا الكلام وتعرّفنا إلى أنفسنا، نحن رجال الحِرافة نعمل بالسوق حرفيين. أمّا هي فلم نَكُ نعرف ماذا

تعمل، لعلّها كانت تسكن البيت معنا. . وتلك وظيفتها!

لم تكن تجالسنا بالطبع، فكنّا نحكيها، فتتقلّب هي في غرفتها نمرة، وطفلة، وقطّة، وسمكة، وعصفور يغرّد .

أحدهم قال ذات مرّة «استحضرت صورتها وأنا بنفسي مختلٍ، صورتها بالكامل، فتحوّلتُ حصانًا وصرت أصهل نشوانَ وركضتُ في مضمار الشهوة ساعتين كاملتين». . جاءت هي لتغيّر الحكايات، وكنّا نحكيها، وكانت تتقلّب في غرفتها لبؤة وإنسيّة وجنّيّة. وكنّا نحكيها، فإذا بنا نسمع صوت حواديتنا تتجسّد على باب غرفتها أطياف وأصوات معلّقة: نمرة وأرنبة ومهرة ولبؤة وطفلة صغيرة؛ ففزعنا. . ونحن نحكيها!

التزمنا الغرف أيّامًا. لعلّ زملائي استطاعوا ألّا يحكوها، لكنّي فشلت. . وكانت ليلة واحدة. . قلت ـ لمّا استدارت وأزهرت وردة أسفل بطنها ـ: هذا كريز، قالت: لم؟ قلت: لأنّي أحبّ الكريز، قالت: يا سلام!

كانت مستلقية على فراشها تحوطها هالات النور الذي يسقط من السماء كالندى، وتغيّر المكان، ولم يعد هناك سقف. طلبتني، وكنت أنا الإنسان، وهي الحوريّة، مهرة كانت، ولبؤة، وحور عين تمامًا كما تصفها الحكايات، وكانت هي المهرة تتأوّه كامرأة وكنت أنا الإنسي أزأر كأسد.

آه لو لم نفترق! لو لم تختفِ! لو لم يأتِ صباح فأتحوّل عفريتًا على غير إرادتي، لكانت هنا الآن، وكانت حكاياتي سعيدة، وما كنت أحكي وحيدًا، كنت سأحضر لها زهرة وقطعة

شوكولاتة... تسألني لِمَ هذه لوزة؟ فلا أقول، وأهزّ كتفيَّ راقصًا بالرفض، فتقول: وحياتي!.. تعدمني لو ما قلت. فأقول: هذه لوزة فبها حسنة... فتختفي والليل.

... «سامحيني يا روحي أنا قصديش.. حِلّي الضفاير ضلّي فوقي، سامحيني يا روحي دا هوّا مش شوقي، حِلّي الضفاير كوني في عنيّا...».

... «هو اللّي غاب ده كان لي مين، هوّه اللّي يدعي وأقول أمين، وعْنيّا حواليّا ملوك حايمين، يرحل بعيد عنّي وألقاني، عاوز أعوم وإديّا مش عايمين...».

* * *

هل أحكي لكم حكاية «تعيسة» للخروج من هذا الجوّ الكئيب؟

سأحكي عن البنت «سفيرة».

كانت سفيرة تعيش في قصر على قارعة الطريق، يمكن أن نتخيّله قصرًا من قصور «غرناطة» القديمة، فليكن قصر «الحمراء»، وسفيرة بنت صاحب القصر، وأبوها ليس ملكًا، بل هو شخص جاهل، يقرأ ويكتب وقد يكون طبيبًا يمارس الطبّ ويشفي الأبدان، لكنّه لا يعرف قيمة الأسماء ولا معانيها، وها هو يسمّي طفلته الجديدة سفيرة، خُيِّل له أنّه بذلك قد يصنع شأنًا عظيمًا لها في المستقبل، لكنّه لم يقرّر ذلك صراحة بينه وبين ناموس الأسماء، بل أخفى الأمر عليه، فتشابك الاسم لدى الناموس بمعنى «السفور»، فكتبها في سِفره «سافرة»، فولدت سفيرة تأبى

الألبسة الداخليّة، بشعر منكوش يأبى التصفيف والتهذيب، تقابل الضيوف رافعة تنّورتها كما اتّفق، تمشي مبعدة بين فخذيها كأنّ بينهما (أير) فيل صغير، وتستبدل الفيل بالهواء أحيانًا عندما تجلس على قارعة الطريق تلعب بالتراب، نعم! فهي لا تزال طفلة، وكلّ ذلك أحدثته وهي تمرّ بأعوامها صغيرة لم تتعدّ العشر سنوات بعد. قد تعتقدون أنّ لها صلاحًا إذا نضجت، وأنّ ذلك مجرّد إسراف في التدليل أو شقاوة أطفال، لكنّه أبدًا لن يحدث، فلن يغيّر الناموس اسمًا قد كتبه، ولن تأخذ الطفلة من السفور غير معانيه السلبيّة؛ فهي ابنة صاحب القصر غير الملك!

برأيكم، هل توجد تعاسة أكثر من ذلك!.. أفلا تضحكون؟!

* * *

«خامل» يرصّ الطوب في الخارج، الطوب الأحمر، يرصّه بعد مشادّة عنيفة بينه والبائع، كان يريد خمسمائة طوبة، والبائع يريد أن يغشّه في مائة.

كان يسير في الشارع الطويل.. يعلم أنّه إذا ذهب مباشرة للـ «مَوَّان» سيعطيه الطوب بسعر غال، لأنّ الموّان صاحب محلّ، يشتري الطوب من المصنع ويضيف ربحه الخاصّ إليه، لكن ـ حمدًا لله ـ هناك طريقة للتوفير، حيث أصحاب عربات «الكارو»، خامل يعرفهم، ويعرف أنّهم يشترون مباشرة من المصنع ويبيعون مقابل ربح قليل، ويعوّضون ربحهم في غشّ المشتري عن طريق «أكله» في خمسين أو ستّين طوبة وأحيانًا مائة، لذلك تشاجر مع البائع، يعرف أنّه سيغشّه لا محالة، لكنّه يريد بشجاره ذلك الخروج بأقلّ عدد مسلوب من الطوب، ونجح ـ حمدًا لله ـ

وخرج كاملاً إلّا عن عشرين طوبة فقط.. يا لسعادته وهو يرصّ الطوب الآن!

هذه الأراضي الموشكة على أن تصبح مدينة كانت أراضي الجوّافة، وهنا بالتحديد حيث يقف «خامل» كان بيتي، وهو الآن يُشيَّد من جديد. ياه! مرّ زمن!

* * *

في البيت الكبير، في البلدة البعيدة قرب البحر، لم تكن مسعدة، وهي تسكن الحجرة الأولى إلى الشارع، تفتح الباب الحديد بعد الساعة الثامنة مساءً. زوجها مات، وليس لها من الدنيا غير أولادها والشرف! كيف تفتح الباب في تلك الساعة من الليل؟ ماذا يقول عنها الناس؟ حموها كبير وحَمَاتها كذلك، مثل «كِليمين» يُحرَّكان حيث الشمس في الصباح، وفي الليل يُفْرشان والحصير فوق أفران الخبيز؛ ينامان.

تزوّجت مسعدة من ابنهما الأكبر مصلح، كانت في العاشرة، ومات وتركها وهي لا تزال دون الثلاثين، كان لمصلح أَخَوان، عبد الصمد كان التالي له ثم موسى.

يُدَقُّ الباب ويدخل الرجال ذوو الجلابيب الطويلة في ليل الشتاء باليوسفي والبرتقال والحرنكش، وفي الصيف لم يكن

البطّيخ بعصيّ على الاختباء بأكمامها ـ الجلابيب ـ التي تحوي كلّ شيء يخفى عن جابر الصغير. آه يا جابر الصغير..!

لم تكن مسعدة ترضى من الدنيا غير سعادة أولادها، باعت نصيبها من ميراث أمّها، ثم ما تبقّى من ميراث مصلح، واشترت بالآجل والمدفوع لجابر الحرنكش والبطّيخ... جابر سيظلّ حياته يحبّ البطّيخ!

* * *

النزاع بين خامل وعبد الصمد لن يكون وليد اللحظة. . موسى وهو الأصغر لكنّه الأطيب، كان يعمل مع أخيه مصلح ساعيين في مصنع الإسمنت؛ والإسمنت قوّة جبّارة، تقي البيوت شرّ الشتاء، وقد حَلمَ عبد الصمد طويلاً بالعمل هناك، خاصّة أنّ أخاه قد مات ومكانه ـ الآن ـ صار فارغًا، لكن موسى لأنّه الأطيب سيقف له كالإسمنت، ويحول دون عمله ويضع خامل في محلّ أبيه، ولأنّ خامل تعلّم القراءة والكتابة والحساب، سيعمل كاتبًا في شركة الإسمنت. . وهكذا ستبدأ الحياة!

* * *

كان يحبّ النوم، رغم أنّه ينام في اليوم مرّتين فقط؛ في العصاري بعد أن يعود من عمله، وفي المساء كالناس العاديين، لكنّه ينام! وليس من ينام كخامل، فهو إن أفاق وأينع، تفوح منه رائحة النوم كوردة ياسمين في فصل الربيع، طوال اليوم يفوح بالنوم، ورغم ذلك فهو نشيط.. نعم هو كذلك، ويحبّ الحركة أيضًا، وفوق ذلك كلّه هو نابغ يعرف كيف يسيّر أموره في العمل. كان يكتب بونات الإسمنت، وقت أن كان الإسمنت يباع ببون؛ لكلّ عميل حصّة محدّدة، والعملاء شرائح.

عائلة كبيرة يملكها خامل، أمًّا أرملةً وأخًا وأختين، جابر يذهب للمدرسة بحذاء مقطّع وأخته الكبرى جاءها عريس، سيّده وسيّدته ينامان ككليمين فوق أفران الخبيز، وعمَّاه ذوا الجلابيب الواسعة، منشغلان بعائلتيهما... قصّة عاديّة لكنّها ملهمة في مثل تلك الظروف. وخامل نابغ عرف كيف يسيّر أموره في العمل،

راقب طويلاً وتعلّم جيّدًا، بقي فقط أن يذهب إليه ذلك الرجل ويطلب منه حصّة زائدة في الإسمنت، وفي تلك البلد حيث البيوت من الحجارة والطين لا يحتاج خامل لأن يكون مشهورًا.

هل ضيَّع خامل أموال الرجل أم اختلسها؟ ذلك سيبقى لغزًا محيّرًا للجميع، لكنّه كفيل لعبد الصمد أن يزيح ابن أخيه إلى الأبد..

يوم مشهود هو ذلك اليوم الذي سينطبع في ذاكرة مسعدة كالوشم، وستسلّمه إرثا في حكاياتها لأولادها ثم أحفادها كالدين. الشمس في منتصف السماء والحرّ يضرب الأدمغة، والرجال متحلّقون عند مدخل القرية وأمام البيت الكبير، عبد الصمد يطمئن الرجل بأنّ أمواله ستعود، والولد خامل ابن الأفاعي جالب العار سيلقى عذابًا من سجّيل، ثم يأمر الرجال باستمرار الحفر، يريدها حفرة كبيرة وغائرة.. أُمّ خامل بالبيت تنتحب، والجدّان كليمان بجوار الجدار، وموسى طيّب وجابر عند المعدّية ليحذّر أخاه.

* * *

هو هكذا خامل في أداء واجباته الاجتماعيّة، فبالرّغم من كلّ ما قام به ليتمّ زيجة أخته، لم يبدِ اهتمامًا قطّ في معاينة سكن الزوج؛ لا عندما تقدّم إليه يطلب يد أخته، ولا حتى بالذهاب لإيصال الأثاث وفرش العروس مع باقي رجال العائلة قبيل الزفاف، كما هو العرف المتّبع.

ولِمَ يذهب؟ فالعريس أحد أبناء عمومته، فهل سيغشّه؟ هكذا كان يردّ على أمّه إذا لامته.

ولمّا لا تجد أمّه ـ في تلك المواقف ـ غير الحرج والصمت لباسًا لها في وجه اللائمة زوجة عبد الصمد، التي لم تكن تتحرّج ـ أبدًا ـ أن تسألها «أُمّال الأهبل راح فين»؟

فخامل في تلك المناسبات، كان كالملح، تراه وقد بزغ بقامته الفارعة ووجهه البرونزي اللامع، يتقدّم الجميع، فيكون أوّل

الموجودين، وأوّل المفارقين، كأنّه يتلاشى، لا يعرف أحد أين يذهب وكيف يختفي! حتى يوم العرس لم يصحب أخته حتى منزلها، فقط سلّمها لزوجها واحتضنه، ثم ذاب بين المعازيم.

لذا، فعندما عبر البحر، ووطأت قدماه أرض البرّ الغربي، لم يكن يعرف إذا كان ذلك الشطّ هو شطّ مدينة الجوّافة، ولم يكن يدري كذلك هل سيعثر على بيت أخته أم لا، فألقى البحر وراء ظهره واتّجه ببصره نحو الطريق.

وهناك، على الطريق، رأى خامل رجلاً بعمامة بيضاء وذقن تشبهها، يلبس جلبابًا رماديًّا بلون وجهه، مفرود القامة يمشي بثبات بعد أن خرج من كوخه، يمدّ يده بجيب الجلباب، فيُخرج علبة معدنيّة، يفتحها ويشعل سيجارة، فيشتعل معها خامل حنينًا لواحدة مماثلة، ويشرع العجوز في امتصاصها على مهل، حتى إذا فرغ منها وألقى بالعقب، توجّه إلى الطريق المرصوف بالحجارة والشمس، وإذا بالسوق قد لاح قريبًا، حنى العجوز ظهره وأسنده بيده اليسرى، ومدّ اليمنى أمامه، وشرع في المناجاة «لله يا محسنين.. لله».. كبّر خامل وشكر صنيع العجوز التقي، فبسببه آمن أنّه قد وصل إلى المدينة، وبقي له فقط أن يعبره نسيم الجوّافة ليوقن أنّه لم يضلّ الطريق.

كان يومه الأوّل بالعمل عندما اهتدى إليه خامل.

زوج إخلاص، اسمه رضوان، وهو ابن عمّ خامل وابن خالته في الوقت ذاته. في صبيحة يوم بعيد، بعد أن ارتوى من عسل إخلاص، قرّر أن يشتغل بالجزارة، فعمد إلى شاة، كانت

قد جاءته كنقوط في عرسه، وربطها بحبل من عنقها، وتوكّل على الله يجرّها إلى السوق. يرتدي جلبابًا أبيض، ويحمل في ملاءة بيضاء أدوات الذبيح، وميزان صغير، وورق لفّ.

دقّ وتدًا في الأرض وربط الشاة، ريثما يقيم خيمته ـ دكّان الجزارة. تحلّق حوله الأطفال ثم النساء فالرجال، سنَّ سكّينه، وبسمل ثم نحر، فانهال الأطفال يلطّخون أيديهم بالدماء الساخنة، وتخفّفت النساء من نعالهنّ وغُصنَ بكعوبهنّ الحافية في الدم.

اجتذب الضجيج خامل ـ الذي كان قد قرّر النزول إلى السوق ـ ناحيته، ولم يأخذ وقتًا بعد تبادل الحنين مع رضوان، حتى تجرّد من قميصه ونعليه، وجلس ـ من دون أن يعرف الهدف من وراء ذلك ـ يسلخ الذبيحة مع نسيبه. علّقا الذبيحة من عنقها المبتور في عمود الخيمة، وشقّها رضوان فأخرج بطنها، ثم مدّ يده ثانية فأخرج الكلى. سُنّة رضوان وآله من بعده أن يأكلوا كلّيّة الذبيحة نيئة، ساخنة بحلاوة الروح، وهو ما أثار استغراب بعض الحاضرين، ودفع إليه الزبائن دفعًا، فشيمة أهل المدينة الولع! وهكذا ازدادت الحلقة حول الخيمة واتّسعت حتى ظنّ الوافد إلى السوق أنّه ـ أي السوق ـ كلّه مقام، هناك، في تلك الخيمة، وما إن باع رضوان أوّل كيلو لحم، حتى هبطت عليه السماء بشرطة التموين، وقُبض عليه وخامل وتمّ اقتيادهما إلى قسم الشرطة.

* * *

واستمعْ الآن إلى الحكاية، لكن انتبه،

وافصل الحَبَّ عن التبن!

تعس أنا.. أأعيش أبد الدهر؟ أم القادر على قبض روحي يوم كنتُ جسدًا سيقبضها كذلك وأنا شعر؟

الروح الطليقة شعر، والحكي كذلك شعر؛ شعر العالم والروح معًا، فقط عندما يخرج نقيًّا من الروح.. وأنا الروح شعر مكبّل بغلالة الجسد؛ الأبد جسد.. يا ربّ فلتقبضني شعرًا.

لقد قرّرت الائتناس بالحكاية والشعر، في وجه الأبد الغامض، ليس بالحكايات المتناثرة، وإنّما بالسعي الدؤوب للخلق!

بدأتُ الحكايات عابثًا، ثم فرضتُ على نفسي مسارًا ألتزمه، وهو أن أخلق جنِّيّة أحلام، ولكنّي سأكون خالقًا ولست بخالق، بل تخلقها الحكايات والأحلام... وهذا الكون الفسيح الذي صرت على هامشه، سأخلق لنفسي من نفسي كونًا يوازيه... **فيه**

النقطة أصل كلّ خطّ، والخطّ كلّه نقط مجتمعة. فلا غنى للخطّ عن النقطة، ولا للنقطة عن الخطّ. وكلّ خطّ مستقيم أو منحرف فهو متحرّك عن النقطة بعينها، وكلّ ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين. وهذا دليل على تجلّي الحقّ من كلّ ما يشاهد وترائيه عن كلّ ما يعاين. ومن هذا أقول: ما حكيت شيئًا إلاّ وحكيته من نفسي، وحكيت نفسي فيه... أنا العفريت غريب!

تاريخ موجز للبيت الجديد

في طريقهما عائدتين من أرض الزيتون ـ حيث أهلها يعيشون على عصره وبيع زيته ـ شرخت «سيّدة» هواء الأرض والسماء بالعويل، وباللطم جلدت خدودها.. هتجوّزيه قرعة يامّه... عيني عليك يا خويا.

كانتا قد ذهبتا عصرًا لزيارة العروس التي تقدّم خامل لخطبتها بالأمس، أو بالأصحّ ذهبتا لمعاينتها. خرجت عليهما «رئيسة» بشعرها وقد جعلته «طائيّة»؛ أي أثنته ولفّته كالقبّعة على الموضة، ولم تكن كلتا المرأتين تعتادان مثل تلك الموضات، فما تعرفه السيّدتان جيّدًا هو الشعر السايح زبدة، والصدر النازل حنانًا، والعينان الواسعتان السوداوان، أمّا رئيسة فكانت قصيرة حمراء الوجه ذات تقاسيم جامدة، ولكنّها جميلة وعيناها عسليّتان، ولدتها أمّها في أكثر شهور السنة قيظًا، فأكسبتها شدّة الحرارة جَلَدًا وقوّة، ثم سمّتها «رئيسة» لتلصق قلبها ـ قبل قدرها

ـ بحبّ القيادة، لكنّها ـ رئيسة ـ ستعاني طفولة صعبة. بنت وحيدة على ثلاثة صبيان، وحصيلة تعليميّة قليلة: فكّ الخطّ والعدّ حتى الرقم مائة. بيت أبيها الشيخ «معزة» يقع على الحدود بين المدينة والريف؛ عند عصّارات الزيتون، رئيسة أبدًا لن تخبر أولادها عن الشيخ معزة شيئًا، غير أنّه الشيخ «فقي» صاحب الكرامات، لكنّها في غفلة من الزمان ـ سالكة ما تحبّه نفسها بالتصريح عن حكمتها، وتأكيدها المستمرّ بانحدارها عن بيت مبروك ـ ستحكي لهم أنّه كان لأبيها ـ في شبابه ـ جارة يميل إليها، لكنّها لم تكن تبادله الميل نفسه، فمال إلى شجر الزيتون وأحضر منه حبّة مباركة، وقرأ عليها ما تيسّر من علمه، وأهداها لجارته حتى تأكلها فتنجذب إليه، لكن ـ وحتى يصير له اسم يليق به ـ لا تأكلها الجارة وتترك الزيتونة بجوار الشرفة، وكانت لجارة أبيها تلك معزتان فأكلت إحداهما الزيتونة، ومن يومها والشيخ فقي أينما ولّى تتبعه المعزة في ذيل جلبابه.

* * *

بعد يومين من حادث الجزارة بالسوق، قرّر خامل الانفراد بحِمله في حجرة مستقلّة، ومخطّطه بعد ذلك استقدام مسعدة وأخوته لإيناسه وطمأنته، فهو ـ بالتأكيد ـ لن يأمن عليهم وعمّه الأشرّ عبد الصمد رابض في غرفته على بعد خطوات منهم، حتى وإن تواجد بجوارهم عمّهم الأحنّ «موسى». . . موسى. . وهل ينسى خامل ما فعله موسى لأجله؟ لكنّه لا يدين فقط بالفضل تجاهه وحده، بل هو مدين للحظّ كذلك. . أو لنقل، إنّ موسى والحظّ وذكاء خامل الشخصي قد لعبوا منذ البداية دورًا مهمًّا في إبقائه سالمًا. . قال موسى للرجل المصاب في ماله: «كامل» لا تقربه، ومالك دين لديّ إلى يوم أقوم، يعينني عليه «الفتّاح» بستره ورحمته. . لكن إيّاك والولد! كذلك كان بديهيًّا ـ وهنا سيأتي دور الحظّ ـ ألّا يذهب الرجل إلى شركة الإسمنت. . . هل يقول لهم أعيدوا إليَّ رشوتي؟ خامل لم يكن ذا أهمِّيَّة في شركة الإسمنت،

مجرّد كاتب، ومن الصعب للرجل أن يشتكيه، كلّ ما كان بوسعه أن يفعل هو الذهاب والاعتراف على نفسه برشوة خامل. . وماذا سيفعلون لخامل هناك. . أيطردونه؟ وما ينفعه طرده إذا طُرد؟ كلّ ما يريده هو ماله وكفى. . والإسمنت؟. . اللعنة على الإسمنت، كفاه ما حدث!

وهكذا، استطاع خامل الذهاب إلى عمله ومواصلة حياته في هدوء وسكينة، دون قلق إلّا على عائلته ومستقبل ألهمته به أراضي الجوّافة الفسيحة، كذلك لم يعد خائفًا من لوم أو مواجهة، فموسى لم يشأ أن يذهب لابن أخيه ويقتلع عينيه ليقرّ له بحقيقة ما حدث للمال، فلم يك يشغل موسى من قصّة ابن أخيه غير أنّه مسكين، وأنّ أخاه عبد الصمد جبّار لا يهمّه شرفهم بين الناس في القرية ولا سداد دين الرجل المصاب، بقدر ما يحمله غلّه على الفتك بابن أخيه الصغير.

* * *

قطعة الأرض الفضاء، كانت بلا صاحب حتى حطّ عليها القهوجي الصعيدي. . لم يكُ بأرض الجوّافة مقهى بعد، ولكن خامل وجد الرجل هكذا باسمه، ولم تك الأرض ـ على اتّساعها ـ غالية الثمن، فالقهوجي قد امتلكها بوضع اليد، وكان رجلاً قليل الطموح رغم ذلك، فلم يستغلّ الأرض لينشئ مقهاه «القهوجي الصعيدي» إلّا بعد أن باعها بفترة طويلة.

واشتراها خامل. وأقنع مسعدة ـ التي جاءته وأخوته ليؤنسوه في الحجرة الصغيرة في السوق ـ أن تبيع ما تبقّى لها من بيت أبيها، وتضع مالها على الأرض الجديدة فيصير شقّة يسكنون إليها لتقيهم الفرقة بين البلاد والسكن بالأجرة عند الأغراب، كما أنّ امتلاكهم بيتًا في أرض الجوّافة سيمنحهم وصل نور باسم الحاجّة مسعدة أو خامل يخوِّلهم نقل ولدهم الصغير سالم/ جابر ـ الذي لا أستطيع حتى الآن إطلاق اسم محدّد عليه ـ إلى مدرسةً

بجوارهم بدلاً من تركه يتيمًا بين بيوت الأهل في بلدتهم القديمة، والتي أصبحوا الآن أغرابًا عنها.

خلال فترة وجيزة، استطاع خامل أن يملأ جزءًا لا بأس به من تلك الأرض ـ التي اشتهرت بين الناس بعد ذلك باسم «الكراج» ـ بالطوب والإسمنت، اللذين شكّلا حجرتين كبيرتين وصالة واسعة مسقوفة بألواح مموّجة من الآيمنت.

أمّا عن حديث الكراج، فلا كان البيت ولا الكراج لولا رئيسة.. بنيت لنا حجرتين وصالة، أتمم جميلك بسقف من الخرسانة... كيف ومن أين؟... ما لنا وهذه الأرض الكبيرة، أنت لست في البرّ الآخر، هنا يكفينا حجرتان وصالة، أمّا الباقي فابنه بيتًا وأجّره، ومال الإيجار يفيدك ويفرج عنّا، وجزء من هذه الأرض قد يصلح ليكون كراجًا، أرض الجوّافة قريبة من شركات الإسمنت وعصّارات الزيتون؛ ببعض الطوب أحِطْ ما تبقّى من مساحة الأرض بسور، واجعل عليه بابًا نحرسه جميعًا ونؤمّن العربات أثناء مبيتها، وينيبنا من المال جانب.

تجارة جديدة أضافت إلى خامل وأضاف إليها بعض ممّا أكسبته المدينة معرفةً؛ عرض على الناس في السوق أن يسكنوا لديه، شريطة أن يدفعوا مبلغًا يسيرًا من المال يبني بواسطته حجرات لهم يسكنونها، وسَوّرَ الفراغ المتبقّي من الأرض وأقعد عليها أمّه صباحًا وبات فيها ليلاً، ولكن خطفته تلك التجارة من وعده لرئيسة؛ فنسي الشقّة ذات الحجرتين والصالة، وصار البيت يطولُ ويعرضُ وهم ما يزالون في أسفله.. ولكن رئيسة لا تنسى!

اكتمل الطابق الأخير من المنزل وانفضّ أسفله من السكّان؛ أخذت رئيسة الحجرتين بساكنيهم وانتقلت إلى الطابق الأخير / الجديد. . . كيف حدث ذلك؟!

عاد خامل من عمله بشركة الإسمنت، ذات نهار، فوجد الحجرتين بمدخل البيت فارغتين من كلّ شيء إلّا من بلاط المزايكو المشبّع بالرطوبة، وبالتوتّر نفسه الذي انتقلت به رئيسة وباقي الأسرة إلى الأعلى، تنقّل الدم في رأس خامل؛ فصار نصف ساخن نصف بارد، لكنّه لم يمكث على ذلك طويلاً، فسرعان ما انتصر الغضب على المفاجأة في الرأس الذي استشاط سخونةً، فصرَّ خامل السلّم بحذائه في قفزتين حتى استقرّ أمام عتبة الشقّة الجديدة، رآها وحيدة في الصالة ولم يتغيّر وجهها الجامد إلّا عن ابتسامة حمراء.. طبخت لك اللحم في «الدمعة». . . فلوس الناس يا مرة، هنسرقهم يا بنت «الفقي». . . حاشا وكلاّ! من قال سرقة! انظر! ما أجمل الغرفة «البحري» التي اخترتها لنا، وضعتُ عليها ستارة تسترنا، فلا باب قد رُكِّب لأيّ من الحجرات بعد!.. الفلوس!. . . تُردّ.. والكلمة التي أعطيتها للرجل. . . نعتذر، أيكون البيت بيتنا وتريدنا أن نسكن طيزه؟. . . لا! نعتلي إذن قمّته وننزل خراءنا على الناس!. . .

نصف بارد نصف ساخن دار العراك فيما بينهما، ونصف بارد نصف ساخن تبدّل جسد خامل الذي بدأ يتزحزح رويدًا رويدًا إلى داخل الشقّة الجديدة، وعندما عاد رأسه مرّة أخرى حيث البين بين، سحبته رئيسة في نعومة إلى داخل غرفتيهما، وفي نعومة

مماثلة أسدلت الغطاء الذي كانت قد مهّدته ليسترهما.

***

أصبح عبد السلام، الشابّ الوسيم الهادئ، أوّل مسمار للفرح في البيت الجديد. سكن الحجرتين الفارغتين بالطابق السفلي. استحسنته مسعدة وسَمّته ابنًا لها مذ رأته، وخطبته لسيّدة.. أنت يا بني منين أهلك؟.. من بلاد بعيدة، جئت هنا أزرع الزيتون؛ للرزق جئت، ودائمًا.. لقد أحببتك يا عبد السلام، وأرض الزيتون بركة تزوّج كامل منها، وأنت في منزلة كامل، سأزوّجك من ابنتي سيّدة.

سيّدة رغم غَلَظتها جميلة، قطّة شرسة على الغريب شديدة الحنان على القريب، أو شرسة على القريب والغريب شديدة الحنان على من يخصّها، تزوّجت وسكنت الغرفتين مع عبد السلام الذي عاش معها في العسل سنة وحيدة ثم مات، ليعرفها العالم بعد ذلك: «سيّدة» القطّة الشرسة غليظة القلب على الغريب شديدة الحنان على القريب، أو الشرسة على القريب والغريب شديدة الحنان على من يخصّها، ثم زاد الناس على ذلك أنهّا نذير شؤم، ووصمتها تلك الصفة الجديدة ثلاث سنوات، انكفأت خلالها على نفسها، وهجرها الونس حتى في داخلها، فغدت غابة مهجورة، وصار الشَعر ينبت في جسدها من كلّ جانب، قبيحًا وجميلاً في الوقت ذاته؛ فشعرها الناعم مع جسدها الأملس جعلا الشعر النابت يبدو كالطحالب والفطريّات اللزجة التي تنمو مكتئبة على الصخور، وذلك كلّه أمرٌ عاديٌّ بالنسبة لامرأة قد ألفت

السخط والحبّ والوحدة، لكن غير العاديّ بالمرّة هي غابة «الهيش» التي نمت وترعرعت بين ثدييها؛ فنظرة واحدة لصدرها تكشف للرائي معاني الرعب والدهشة واللذة مجتمعة في آن، وتُحرّك الدم من أصغر ظفر لديه إلى أقصى شعرة في فرو رأسه؛ حتى إذا انفجر الدم مندفعًا من فم الرائي، فلا يُلام صدرها على ذلك.. لكن سيّدة أبدًا لن تسامح أو تنسى ما فعلته رئيسة في يوم تجهيزها ـ سيّدة ـ لزواجها الثاني.

نادى خامل مسعدة، ثم اختلى بها في غرفتها.. فوزي حصّالة الذي يسكن حجرتيْ الدور الأرضي منذ شهرين.. ماله؟.. فاتحني في خطبة سيّدة.. لكنّه أرمل يا بنيْ، يكفيه اسمه الذي وصمه بالبخل.. أسموه حصّالة لأنّه محصّل في شركة الحديد وليس لأنّه بخيل، ثم إنّ سيّدة مثله أرملة.. لكن سيّدة أرملة فقط وهو أرمل ولديه ولد.. ولده سيتركه عند أخواله في قريتهم البعيدة وسيذهب ليزوره من حين لآخر.. يرمي ضناه وتريد منّي ائتمانه على ضناي.. وكأنّك تترصّدين له أيّ عيب والسلام.. لقد أعطيته كلمتي وكنت أظنّك تفرحين!

حين جاءت النسوة بدم الغزال والسكّر والليمون ليجهّزوا «سيّدة» العروس لعريسها فوزي حصّالة، أوكلوا الأمر برمّته لرئيسة، فهي ابنة المدينة التي ما زالت ـ رغم سخريّتهم المزعومة من اهتمامها الدائم بمظهرها ـ تدهشهنّ بلمعان جلدها المفارق لفطرتهم الريفيّة.. تحضّرت سيّدة في غرفتها تنتظر النظافة، وجاءت مسعدة بقِدر ماء ساخن وإبريق ولوفة ومن خلفها رئيسة

بلوازم التلميع، وقبل أن يجلسنها على الكرسيّ الخشبيّ المعدّ للاستحمام، وقفت مسعدة من خلفها ورئيسة من أمامها يساعدنها في خلع الملابس، ففكّت مسعدة عقدًا ذهبيًّا حول رقبة سيّدة كان شبكتها من المرحوم عبد السلام، ثم انثنت ترفع عنها جلبابها، وحين استقامت بعدما جرّدتها من ملابسها، أدارت وجهها ذاهلة على صرختيْ رئيسة وسيّدة بالتتابع، ثم أبصرت صدر ابنتها الأزغب وقد أفرغت عليه رئيسة جوفها بالكامل من هول صدمتها قبل أن يخرّ جسدها على الأرض فاقدةً الوعي.

خرج الدم مع جوف رئيسة فطهّر بطنها من كلّ ازدراء، وحوَّل صدر سيّدة إلى سجّادة والوسخ فوقها متراكب الألوان، الشَعر كأنّه مخاط أسود يعلوه الأخضر فالأصفر ثم الأبيض والدم من كلّ الجهات.

للوهلة الأولى تشتّت مسعدة بين المرأتين، المغطّاة بالزَبَد والدم، والملقاة على الأرض، ولأنّ الأولى لم تفقد وعيها ـ فقط كي تطبع في ذاكرتها كلّ ما حدث ـ اتّجهت مسعدة لمن ساحت روحها على الأرض؛ قلبها في حلقها. . فاللحظة مهولة، تضمر الغضب أشدّ الغضب تجاه رئيسة لما أحدثته بابنتها. ودّت لو لكزتها بقوّة في بطنها فتقضي عليها، لولا أن لمست بيدها الخبيرة مكامن بهجتها، ثم تفحّصتها، فتبدّد الزمن التعيس في ذهن مسعدة وحلّت محلّه الزغاريد. . يا ألف نهار أبيض. . ونادت على النسوة كلّهنّ، فدخلن.

فاجعة يا مسعدة على وشك الحدوث رغم فرحك؛ فأنتِ لم

تنظّفي جسد سيّدة أو تستريه بعد، وستتكرّر مأساتها مجدّدًا مع كلّ امرأة من الداخلين على حدة.. أوْليتِ وأولينَ الاهتمام من بعدك لرئيسة.. سيّدة هي العروس وتقولين إنّها لم تعد بكرًا وهذا عرسها الثاني، أمّا رئيسة فهي الحامل وهي البكريّة التي ستضع النفس الأولى لتلك العائلة في ذلك البيت الجديد.

آه، يا سيّدة! أفعَمَتْ قلبك نشوةٌ جديدة، ومن جديد ينتابه الشوق، من جديد تنتابه المهابة، ويصحو على الطموح.. يصحو على الحياة، والحبّ، والدموع!

* * *

لم يعتد الولد سالم المسمّى جابر، الخصامَ مع أهله؛ اعتاد ـ في معظم الأحيان ـ السمع والطاعة، وكانت أرض الجوّافة وقتها مفتوحة على الكلّ، من تلّ أو بيت عال ينكشف الجميع.

جلس جابر على سطح البيت الملاصق لداره يراقب أهله وهم يأكلون، ولم يسترح إلّا بعد أن تناول قالب طوب أحمر وقذف به الطبق الذي كان يحوي كلّ غدائهم لذلك اليوم؛ شجاره مع أخته في الصباح لا يتطلّب كلّ ذلك الغضب، لكن سالم اعتاد ادّخار غضبه مرّة تلو الأخرى حتى يأتي انفجاره ـ وإن كان السبب تافهًا ـ مدوّيًا ، وقد يستمرّ على ذلك أيّامًا.

كان جديدًا على أرض الجوّافة لا يعرف مكانًا يتسكّع فيه أثناء خروجه من البيت. كان قد غادر الكُتّاب والتحق بالابتدائيّة قبيل حادثة أخيه المشهورة بأيّام، وبعدها بشهور قليلة باعت أمّه

ما تبقّى من بيت أبيها، ولملمته وأختيه وشقّت بهم البحر إلى خامل في أرض الجوّافة، ولأنّ أمّه أرادت أن يكمل تعليمه، أعادته للبلد ليواصل عامه الابتدائي الأوّل هناك، وهكذا تناثر بين بيوت أخواله وأبناء عمومته، هذا يعطيه عطفًا وهذا سكنًا وذلك قسوة والآخر شلنًا أو بريزة، ولم يكن يمكث طويلاً في أيٍّ من البيوت التي تنقّل بينها، طوال ذلك العام، لإحساسه الغريزي باليتم، حتى انتهت الدراسة وعاد أخيرًا إلى كنف أمّه وأخيه خامل، الذي سيظلّ يشعر مهما عاش بأنّه مدين إليه بالفضل.

خامل كذلك يدّخر الشعور ذاته تجاه أخيه الصغير، لعلّه هذا الحلم الذي يعود به إلى المعديّة في ذلك اليوم البعيد. لذلك سأحرص أن أدبّر فرصة لهما في هذه الحياة ـ رغم كلّ ما سيمرّان به من علاقات متوتّرة فيما بعد ـ للبوح بالحنان.. فربّما قد تُقدم جثّة خامل ـ مصرّةً برقادها على سرير سالم في محطّتها الأولى عند مفارقة الحياة ـ الفرصة لسالم كي يصرّح بذلك الفضل لأخيه ظنًّا منه بأنّ الأموات لا يحسّون، فيما سيصرّح خامل لجابر بفضله في سالم ظنًّا منه بأنّ الأحياء معدومو البصيرة، وذلك حتى لا يجرح التصريح ما يعتريهما من كبرياء إذا كانا قد تواجها ـ في زمن يقظ ـ بما تكنّه الصدور.

* * *

بعد سنين قضاها في أرض الجوّافة ومع الذكاء المتنامي له، ابتسمت الحياة لخامل، فصار له بيت وولد. واتسعت ابتسامتها له أكثر فاشترى سيّارة للأبّهة وأشياء أخرى، ولم يكن يعرف القيادة، وعندما تعلّمها لم ينجح في إتقانها، فاستأجر سائقًا. وعندما انقلبت رئيسة عليه لأنّه بذلك يضيّع أموال ابنها على الفخر الكاذب، أقنعها أنّه سيحوّل السيّارة لتاكسي، وبذلك تزداد أموالهم! وكان السائق الذي استأجره لقيادتها منحوسًا، تسرّب نحسه إلى السيّارة، وكادت أن تتحطّم به مرّات عديدة لولا الستر، وبدلاً من أن تكون مصدرًا لجلب الرزق ساعدت في نقصانه، وكلّما ارتكب السائق المنحوس حادثة اعتذر، ولأنّه مسكين يسامحه خامل، لكن جابر لا يستطيع أن يعفو عنه!

.. ما كلّ هذه الصدمات بأسفل السيّارة.. إنّها صدمات قديمة.. لا! بل هي حديثة، لن تقود التاكسي بعد اليوم.. يا

أخي والله قديمة. . أتكذّبني إنّما أنت ابن قحبة. . . (طم!)

جابر الذي تربّص ـ في نهار أحد الأيّام ـ بالسائق في الكراج مضمرًا الانتقام من نحسه، لم يدر إلّا ويد خامل تنزل مجلجلة على خده، فتحول بينه وبين شجار وشيك لا يحمد عقباه. أذنه اليمنى التي تصفر حتى كاد الصمم يصيبها من قوّة اللطمة، لم تسعه إلّا أن ينظر إلى أخيه والسائق النحس، بعينين جامدتي المحجرين، لكنّ قدميه حركّتاه فتركهما ولم يعقّب.

بينه وبين نفسه قطعت كلماته كلّ الطرق المؤدّية لكراهية أخيه. . ما فعله خامل كان صائبًا، لم يتركني لأرتكب المزيد من الحماقات، كان يمكن للسائق أن يردّ لي السباب وكنت ساعتها أمسك بتلابيبه ولا أتركه إلّا صريعًا، وماذا يضير إذا لطم خدّي! هو أخي وله كلّ الحقّ في تأديبي، وأنا المحقوق. . واستكان جابر إلى نفسه في صمت، فهو هكذا سالم! يحبّ أخاه ويوقّره دائمًا في صمت.

* * *

عندما بنوا الطابق الأخير، قُسِّم إلى ثلاث شُقق، ولكنّهم اكتفوا وقتها بالشقّة التي احتلّتها رئيسة لتكون مأوى لهم، وتطوّر العمر بسالم بعد ذلك، فقرّر أن يقيم له غرفة في جهة البيت القبليّة، هناك في الطرف البعيد والذي يطلّ على بيت المعلّم «هيكل الأصيل»، وكانت مصادفة أنّ «إكرام» ابنة المعلّم تمقت الحَرّ ، وعندما تأتي زميلاتها ليذاكرن سويًّا، تأخذهنّ وتصعد إلى سطح المنزل، عندها يستطيع سالم رؤيتهنّ بوضوح من غرفته. كانت إكرام قبل أن تصعد بزميلاتها إلى السطح تخبرهنّ عن ذلك الشابّ الأخرق الذي يسكن بمواجهتهم. . أخرق لكنّه مضحك، حاول لفت انتباهي العديد من المرّات، لكنّني أهملته، وهو وسيم كذلك، وشعره البنّي اللون إذا مسّه ضوء الشمس تَذهَّب، وعيناه خضراوان لكنّهما ليستا كأشجار الجوّافة التي قالوا لنا إنّها نمت بمنطقتنا في زمن غابر، لعلّ لونهما أشبه بالعشب البكر! ووجهه؟

وجهه لا أعرف كيف أصفه. . باختصار هو جميل كما يمكن لبنت أن تصف فتى بالجميل. . ذات مرّة هربت فيها للسطوح من سخونة غرفتي، لا أعتقد أنّها كانت مصادفة عندما خرج ليدخّن ويحتسي الشاي. . «بسبس» لي وتظاهر أنّها للقطط، وعندما لاحظ منّي التفاتة نحوه، اختلّ عقله تمامًا وتحوّل نحوي يشيح بيده كأنّه يصف ما بقلبه من لوعة وحبّ، ولم يدر إلّا وإحدى يديه تصدم كوب الشاي الذي كان قد وضعه على حافّة شرفته، وأمّ حسن زوجة القهوجي الصعيدي قد أطلقت صراخها من شدّة الألم والسخونة كصفير القطار «يابوي. . . يابوي. . يابوي»، ساعتها ركضت بسرعة لأسفل. . . وهو؟ غطس في شرفته ولم تظهر حتى ذؤابته الذهبيّة رغم اصفرار الشمس!

* * *

ذهب الجميل سالم بصحبة أخيه الأكبر للمعلّم هيكل الأصيل، المقاول نجّار المسلّح، وبعد أن تعارف الطرفان، وأفصح كلّ من خامل وهيكل للآخر عن ولعه الأثير والخرافي بالإسمنت، قال خامل ـ وكان قد استراح في مجلسه ـ لعمّه هيكل. . يا حاجّ! أخي سالم الصغير يعمل معي بالشركة ميكانيكي، وهو أسطى عن تعليم وليس عن اكتساب وممارسة، والحمد لله من قوت يومه بنى شقّة جديدة في منزلنا، هي تلك التي تواجهكم، وأمّه ـ مدّ الله في عمرها وزادها حظًّا وسعادة ـ رأت أن لا بدّ له من الزواج، وبصفتها امرأة حصيفة ـ وأنت تعرف النساء ـ سألت عليكم، ولعرضكم النظيف وأصلكم العفيف ولحسن ظنّها بكم تمنّت مصاهرتكم، فماذا قلتم يا معلّم؟

مَكر المعلّم، وأخبره أنّ ابنته الكبرى متزوّجة، والباقيات صغيرات.

وعافر خامل كثيرًا مع الرجل للخروج بإجابة ترضي روح أخيه، متحاشيًا الإشارة ـ أيّ إشارة ـ إلى إكرام التي جاؤوا لخطبتها بالأساس، لكنّ الرجل لم يغفل طوال حديثهم أن يغمرهم بوافر الكرم والودّ، وهو كرم لم يستطيعا معه الصمود أكثر في الكلام دون نتيجة. . وحسنًا أنهى خامل الحديث «كنّا نتمنّى القرب منكم، لكنّها فرصة طيّبة في التعرّف إليكم ـ جعلها الله معرفة خير، والله الموفّق لكلّ طيّب على كلّ حال».

وعاد الرجلان بخفّي حنين، لكنّ النساء ثورة لا تنطفئ، فهل من المعقول أن ترضى مسعدة لابنها الجميل أن ينفطر قلبه، وهل ترضى «باقية» أمّ إكرام لابنتها المصير نفسه؟ تواطأت المرأتان، وفي اليوم التالي اتّفقتا فيما بينهما على كلّ شيء، وأكّدت باقية لمسعدة أن يعاود الرجلان الذهاب للمعلّم بعد أسبوع، سيكون في ضيافتهم ـ وقتها ـ زوج ابنتها الكبرى، وهو ابن عمّ المعلّم هيكل وله عنده دلال وعشم، ثم يقول خامل إنّ زيارتهما الثانية تلك تأتي للتأكيد على قصور الودّ التي أسّسا لها بزيارتهما الأولى، وبعد أن يقدّم المعلّم ابن عمّه لهما، يتوجّه خامل وسالم بحديثهما إليه ويخبرانه عن مدى انشراح صدرهما لبشاشة المعلّم، وكيف انتويا مصاهرته لولا النصيب ـ وقانا الله شرّ طيّاته ـ بعدها سيقوم ابن العمّ بكلّ شيء.

وقد كان. ذهب خامل وأخوه من ورائه، وهذه المرّة استطاع خامل بكلّ فخر أن يؤكّد للمعلّم هيكل أنّ أخاه حبّة عينه لن يبخل عليه بأيّ شيء، وأنّهما جاهزان لكلّ طلباته مهما كانت!

ويا ليته ما قال ذلك، أو ليْتَ سالم لم يحكِ لنساء بيته؛ أمّه وأخواته ورئيسة ـ بكلّ حبٍّ ـ ما وعد به خامل حماه الجديد المعلّم هيكل الأصيل.

وكانت الخطبة من أقسى التجارب التي مرّ به سالم، فالمعلّم هيكل رغم موافقته على الزواج لم ينس أنّهما قد تحايلا عليه وأنّه وافق إكرامًا لابن عمّه زوج ابنته الكبرى، ورغم ذلك صمد سالم وصمدت معه إكرام، حتى جاء يوم تحديد موعد الزواج، وذهب سالم وأخوه للمعلّم.. جُهّزت الشقّة ودهنها سالم بنفسه كما رأيت يا عمّ، وكلّ شيء يجري بمباركتكم... أتعرف أنّنا حتى الآن لم نتّفق على المهر ولا المؤخّر...كلّ طلباتك مجابة إن شاء الله... ألفان مهر ومثلهما للمؤخّر... ماذا؟ هذا يفوق طاقتنا يا عمّ، أبيع له البيت يعني حتى يتزوّج!.. ولم يترك خامل فرصة للصمت حتى يسدّ الجلسة، واندفع سهمًا مغادرًا المكان، ورغم أنّ الذهول قد أقعد سالم عن الحركة، إلّا أنّه في دقائق قليلة استطاع لملمة أطرافه وزحف ليلحق بأخيه دون أن يصدر منه صوت واحد.

ماذا جرى لخامل يا ترى؟ أَلم يعد سالم حبّة عينه؟ كان يستطيع التفاوض مع المعلّم هيكل حتى وإن فشل! هل ضاعت منه إكرام؟ خرس سالم تمامًا ولم يستطع رفع عينه في أخيه عند عودتهما، بينما فضح خامل سكون العصر في منزلهم بصراخه وشتمه، كلّ ما يعرف من لعنات وسباب وجّهها لأخيه وحميه، ثورة اشتعلت في البيت، والجميع باستثناء خامل وسالم لا يفقهون

سببها! وعندما انصرف خامل لغرفته، انفرد سالم الوديع بنساء البيت ـ إلّا رئيسة التي ذهبت خلف زوجها لتهدّئ من روعه ـ وتلا عليهنّ ما كان من أمرهما مع المعلّم هيكل، وبعدما أفرغ ما في صدره وقبل أن تنشأ أيّة تساؤلات لدى أيّ من المستمعات، هبّت سيّدة واقفة ثم زأرت فيهم: «فعلتها رئيسة بنت الفقي».

أتدرون شيئًا؟.. آه آسف للمقاطعة، لكن ما فات قد يكون قصّة جيّدة قد ترضي شغف محبٍّ للحكي، لكنّها بالنسبة إليَّ في منزلة الحَبّ من التبن، وهذا ليس تقليل من قدر التبن أو ممّن يتعاطونه، وإنّما تعظيم من شأن الحَبّ ومن لديه القدرة على التقاطه.. اعذروني إن شققت عليكم، سأحكي الحكاية مرّة أخرى، مع وعدٍ بالإيجاز قدر الإمكان..

لنقل:

ذهب الجميل سالم ـ وكان الناس في موسم المولد ـ بصحبة أمّه وأخيه الأكبر للمعلّم هيكل الأصيل، المقاول نجّار المسلّح، وبعد أن تعارف الطرفان، وأفصح كلّ من خامل وهيكل للآخر عن ولعه الأثير والخرافي بالإسمنت، قال خامل لعمّه هيكل ـ وكان قد استراح في مجلسه، في حين قامت أمّه لتجالس النسوة في غرفة مجاورة ـ يا حاجّ أخي سالم الصغير يعمل معي بالشركة ميكانيكي، وهو أسطى عن تعليم وليس عن اكتساب وممارسة، والحمد لله من قوت يومه بنى شقّة جديدة في منزلنا، هي تلك التي تواجهكم، وأمّه ـ مدّ الله في عمرها وزادها حظًّا وسعادة ـ رأت أن لا بدّ له من الزواج، وبصفتها امرأة حصيفة ـ وأنت

تعرف النساء ـ سألت عليكم، ولعرضكم النظيف وأصلكم العفيف ولحسن ظنّها بكم تمنّت مصاهرتكم. . ولا تخشَ شيئًا من تجهيز عروس أو مقدّم أو مؤخّر، كلّ ما هو لي هو لأخي، وإن قصّر هو أتكفّل أنا بكلّ شيء، فماذا قلتم يا معلّم؟

وقع المعلّم هيكل أسيرًا لواجب الضيافة، ولأنّه طيّب لا يخذل للناس تعشّمًا فيه ـ ما داموا ببيته ـ كلّمهم بالحسنى، وتبسّط لهم كثيرًا ولم يعبس ـ طوال جلستهم ـ في وجههم قطّ، وعندما دخلت مسعدة للنساء، أعطت إكرام مع حلاوة المولد ورقة فئة العشرة جنيهات، ورغم ذلك مضى اللقاء حران دون بلّ ريق، فقط سوَّفَ المعلّم هيكل وأكّد أنّ كلّ الأمور بيد خالقها، وهو وحده يقدّم ما فيه الخير لهم.

«هذه الست مغصوبة على تلك الزيجة» قالها المعلّم بحسم لباقية زوجته. . خذي العشر جنيهات وعلبة الحلاوة وأعيديها لهم. . . كيف ذلك يا معلّم. . . لن أكرّرها ثانية، هذه الست مغصوبة وهذا الأخنف كامل الذي يتكلّم كثيرًا عن المال لن يسدّ عن أخيه في شيء، ثم من سالم هذا الذي يجيئني لخطبة ابنتي بهيئة مثل الراقصين؛ شعره طويل وبنطاله حول خصره وفخذيه ملفوف كالمزمار، خذي الحلاوة والفلوس وأعيديها إليهم!

مرّت سنة! وهل يصدّق أحدكم أن تمرّ السنة من دون أن يعاود جابر الكرة من جديد لخطبة إكرام، أو أن تمرّ السنة من دون أن تهدّد إكرام بالانتحار أو الهرب!. . نعم، مرّت سنة من دون أن يحدث أيّ من ذلك. فالأقدار أبلغ ـ في كثير من

الأحيان ـ من المجاز. .

في أوّل أيّام سنة القطيعة، أي بعد زيارة عائلة خامل لبيت هيكل بيوم واحد، جاء عسكريٌّ إلى بيت مسعدة وخامل يأمر سالم بتنفيذ أمر بالتجنيد الإجباري، وعليه غاب سالم شهرًا ونصف الشهر، لكن ليس التجنيد الإجباري وحده هو سبب الميوعة التي وصمت سنة القطيعة، فنفس سالم / جابر التي أنضجتها السنون هي في حدّ ذاتها نفس مائعة، عجيبة. . ففي كثير من الأحيان تكون ردّة فعله مفارقة تمامًا للجهد المبذول في نيل الشيء الذي يشتهيه، وصفة ذلك الشيء المشتهى، بل إنّ كلمة «شهوة» في حدّ ذاتها غير دقيقة إذا أطلقناها على الطموحات التي تكنّها نفس ذلك الفتى، فأمور كثير تجيش بذاته قد يراها ذوو النظرة غير الأصيلة مجرّد نزوات أو العكس، ولعلّ ذلك انعكس واضحًا جليًّا على الرسالة الأولى ـ والرسائل التي تلتها ـ التي ودّع فيها إكرام عبر ورقة ألقاها على سطح بيتها، فرغم أنّه قد جاء فيها بكلّ ما قد يقوله عاشق مغدور وقع أسير السجن بعد أن خطف قاضي المدينة الظالم زوجته، إلّا أنها جاءت ببساطة في جملة وحيدة. . سأعود وسنجتمع وستظلّين مدى العمر وبعده زوجتي.

هذا ما كان من أمر سالم الجميل، أمّا مسعدة ذات الكبرياء، فقد انتظرت أسبوعًا قبل أن تردّ الواجب ـ هكذا قالت لنفسها ـ للمعلّم هيكل. ذهبت وحدها لبيت صباح اليتيمة وأمّها جارتي المعلّم، وخطبتها لسالم، وكانت قبل أن تدخل بيت أمّ صباح قد

مرّت بإكرام في الشارع وكسرت خاطرها؛ إذ أقبلت الأخيرة تحييها فأشاحت بوجهها عنها وكأنّها ما رأتها، وعندما جلجلت الزغرودة في بيت أمّ سميحة، بصق المعلّم هيكل على عتبة الباب حيث كانت تقف ابنته.. ألم أقل لكم إنّ تلك السيّدة مغصوبة علينا، (ثم التفت إلى باقية) الآن فهمتِ، تلك المرأة ترى ابنتك سوداء وابنها أحمر، لذا فقد خطبت له حمراء مثله، والآن ذلك الراقص عندما يعود، أؤكّد لكم أن سيفضّل صباح الحمراء الجميلة على ابنتك السوداء.

لم تكن إكرام سوداء، بل سمراء عسليّة العيون، كذلك لم يكن سالم أحمر بل أبيض مثل الخميرة، وليس أبيض لون اللفت أو الحليب! فهل هناك بيض كاللفت غير البُرْص ـ المصابين بداء البرص ـ؟ أمّا شديد البياض فهو أحمر، وكانت صباح حمراء زرقاء العيون مذهّبة الشعر، جميلة يضيق المعنى عن وصف جمالها، ورغم ذلك فإنّ المقارنة بين جمالها وجمال إكرام قد يصبّ في مصلحة الأخيرة؛ فاسمرار إكرام لم يأت فقط من نضج جمال فحسب وإنّما أيضًا من نضج ذكاء ودهاء، لكنّه دهاء عن عناد وطيبة!

مرّ الشهر على غياب سالم، تلاه أسبوع ثم أسبوع حتى عاد، وما إن وطأت قدماه عتبة البيت حتى انطلق إلى شقّته، ثم إلى الشرفة ناحية السطوح.. بُهت ولم يجد إكرام كما تمنّى، بل وخزت الزغاريد أذنيه، وامرأة الصعيدي تردّ سؤالاً لزوجها.. الزغاريد من بيت المعلّم هيكل، خطب ابنته إكرام لابن أخيه.

دمّر جابر خطبته لصباح تدميرًا؛ ألقى بهدايا أمّه التي ادّخرتها له طوال الغيبة حتى يهادي بها عروسه عندما يعود، واحتدّ به الأمر حتى كاد يلطم أخته سيّدة التي فشلت محاولاتها المستميتة لتحول بينه وبين إلقاء برطمان السمن البلدي إلى الشارع، وانطلق مغادرًا المنزل إلى بيت أخته إخلاص، لكنّه عاد بعد أن قطع نصف الطريق، وذلك عندما أدرك أنّه لن يستطيع أن يرى إكرام وهو بعيد عن شرفته، ولمّا أمسى إلى شرفته، وجد فيها ورقة، هي أكثر إيجازًا من رسالته الأولى إلى إكرام، حيث إنّها اعتقدت أنّ الإيجاز الذي اعترى خطابه الأوّل، ليس إلّا وسيلة إلغاز وتأمين تقي علاقتهما شرّ الفضيحة، لذا فقد جاء ردّها الأول. . . لا تقلق. . لا زلت على الوعد محافظة على العهد القديم.

شهور تمرّ والورق يتبادل بين الشرفة والسطوح، حافظت إكرام على الوعد ليس بدافع الحبّ وحده ـ رغم أنّ حبّها وحده كفيل لها كي تحفظ العهد ـ بل أيضًا لأنّها كانت ترى طموحها في سالم، فهو على وسامته نال قسطًا معقولاً من التعليم، وموظّف بالحكومة في شركات الإسمنت الناهضة والطموحة أيضًا، على عكس ابن عمّها الذي يعمل بالأجرة في نجارة المسلح مع أبيها، كيف تتزوّج أمِّيًّا وهي التي جاهدت في تعليمها حتى استطاعت الحصول على الدبلوم المتوسّط، ثم جاهدت أكثر للالتحاق بالمعهد العالي للمعلّمات، وتخرّجت لتشغل منصب المدرّسة الخالي بمدرسة «الشجيرات» الابتدائيّة. كان عليها أن تعمل بجدّ هذه المرّة لتُنفِّر ابن عمّها منها، وكانت صبورة رغم

ذلك تعمل بهدوء، والتزمت لإبعاده عدّة طرق، أهمّها أنّها كانت تضع له أمام طبقه أثناء الأكل شوكة وسكّينًا، وكانت تتعمّد أن تأكل بهما أمامه، بينما يضرب هو حيص بيص ويدوخ ويحمرّ ويخضرّ ويصفرّ في محاولاته المستميتة لمجاراتها في الأكل، وأحيانًا كثيرة ما ينهي طعامه قبل أن يشقّ ريقه، حتى إنّه حاول ـ عبثًا ـ في بعض المرّات أن يطلب من ابنة عمه أن تطهو له الملوخيّة على الغداء، فالملوخيّة لا تحتاج عناءً في أكلها، وإذا وجد حرجًا في تغميسها بالعيش شربها بالملعقة، وفي المرّات الثلاث التي طلب فيها الملوخيّة كانت إكرام تضعها باردة أمامه متعلّلة بأنّ عمّه طلب طبخها في الليلة السابقة، فادّخرت له منها طبقًا لكنّه للأسف بايت.

وانفضّت الخطبة وكلّ امرئ صار لحال سبيله بالحسنى أو غير الحسنى! المهمّ أنّها انفضّت. ولأنّ إكرام حبّة عين باقية أمّها، لجأت الأخيرة إلى يحيى زوج ابنتها البكريّة وابن عمّ المعلّم هيكلٍ في الوقت ذاته، للتوسّط لدى المعلّم في شأن إكرام وسالم.

ألقى يحيى اللوم كثيرًا على هيكل.. يا شهم ليست هذه أفعال الرجال، تبعث أمّ مرزوق بالعشرة جنيهات والحلاوة للناس فور أن خلعوا أرجلهم من عندك! يا أخي لو كنت مكانك لمسمرتُ الورقة على الحائط أو لقطعتها ولا كسرتُ بخاطر الناس.. راجع نفسك يا معلّم، وقد رأيت ما كان من أمر سالم مع صباح وما كان من أمر إكرام مع ابن أخيك، راجع نفسك..

لم تكن وساطة يحيى لدى هيكل وحدها التي دفعته لإعادة التفكير بشكل إيجابي في أمر زواج سالم بابنته إكرام، فابنته متعلّمة ولديها وظيفة، وقد خشي المعلّم أن تُلحق ابنته العار به إذ هي هربت مع سالم، وماذا يفعل حينها، فاضطر أن يوافق. وهكذا وجد سالم ورقة في شرفته.. الخميس أنت وخامل بعد المغرب، يحيى زوج أختي وسيطنا، ولا تقلق من شيء.. الأمر محلول إن شاء الله.

ذهب خامل وأخوه من ورائه، وهذه المرّة استطاع خامل أن يؤكّد ـ بكلّ فخر ـ للمعلّم هيكل أنّ أخاه حبّة عينه لن يبخل عليه بأيّ شيء، وأنّهما جاهزان لكلّ طلباته مهما كانت! ويا ليته ما قال ذلك، أو ليت سالم لم يحكِ لنساء بيته؛ أمّه وأخواته ورئيسة ـ بكلّ حبٍّ ـ ما وعد به خامل حماه الجديد المعلّم هيكل الأصيل.

وكانت الخطبة من أقسى التجارب التي مرّ بها سالم، فالمعلّم هيكل، رغم موافقته، لم ينس أنّه اضطُرَّ للرضوخ والموافقة على تلك الخطبة، بالتالي كان على سالم ألّا يغضب أو يستاء ـ هو الموَسوَس بالقرف من أتفه الأشياء ـ إذا قضى أخو إكرام الصغير حاجته عمدًا أمامه أثناء تناوله العشاء بصحبة حميِّه، أو إذا قابله الأخير بلباسه الداخلي ثم جلس غير مكترث لحديثه بالمرّة يدخّن الجوزة، وكان لا بدّ لإكرام إذا أرادت مجالستهما ألّا يبدو عليها أيّ مظهر من مظاهر الزينة، وأن تجلس بعيدًا بجوار أمّها على الطرف المقابل لمجلسهما، وكان المعلّم يكبّل

عنقها إذا ظهرت بكلّ ما يبتعد بها عن المجلس. . ورغم ذلك صمد سالم وصمدت معه إكرام، حتى جاء يوم تحديد موعد الزواج، وذهب خامل وجابر للمعلّم. . جُهّزت الشقّة ودهنها سالم بنفسه كما رأيت يا عمّ، وكلّ شيء يجري بمباركتكم. . أتعرف أنّنا حتى الآن لم نتّفق على المهر ولا على المؤخّر. . .كلّ طلباتك مجابة إن شاء الله. . . ألفان مهر ومثلهما للمؤخّر. . . ماذا؟ هذا يفوق طاقتنا يا عمّ، أبيع له البيت يعني حتى يتزوّج إذن! . . ولم يترك خامل فرصة للصمت حتى يسدّ الجلسة واندفع سهمًا مغادرًا المكان، ورغم أنّ الذهول قد أقعد سالم عن الحركة، إلّا أنّه في دقائق قليلة استطاع لملمة أطرافه وزحف ليلحق بأخيه من دون أن يصدر منه صوت واحد.

ماذا جرى لخامل يا ترى؟ ألم يعد سالم حبّة عينه؟ كان يستطيع التفاوض مع المعلّم هيكل حتى وإن فشل! هل ضاعت منه إكرام؟ خرس سالم تمامًا ولم يستطع رفع عينه في أخيه عند عودتهما، بينما فضح خامل سكون العصر في منزلهم بصراخه وشتمه، كلّ ما يعرف من لعنات وسباب وجّهها لأخيه وحميِّه، ثورة اشتعلت في البيت، والجميع باستثناء خامل وسالم لا يفقهون سببها، وعندما انصرف خامل لغرفته، انفرد سالم الوديع بنساء البيت ـ إلّا رئيسة التي ذهبت خلف زوجها لتهدّئ من روعه ـ وتلا عليهنّ ما كان من أمرهما مع المعلّم هيكل، وبعدما أفرغ ما في صدره وقبل أن تنشأ أيّة تساؤلات لدى أيّ من المستمعات، هبّت سيّدة واقفة ثم زأرت فيهم: «فعلتها رئيسة بنت الفقي».

ذاكرة ربّات الحُسن والحزن

حقّ لها أن تتذكّر الآن بكثير من الحقد والغلّ ولادة بكريها راغب، راقدة على الأرض، شعرها الذي اعتادته طاقيّة كان في تلك الأيّام ضفيرتين، آلام المخاض نار رغم أنّه موسم البرد.

في البدء مُدّت فوق السرير بعد أن أفرغت ماء رحمها كلّه دون أن تدري، ولمَ يجب أن تدري؟ هذا بكرها، وفي الحقيقة لو أنّها خبرت أنّ ذلك ماء رحمها، وأنّه سيتدفّق كلّه تحتها لما وضعت فوطًا أسفلها لتمتصّه، لكنّ الكيس انفتح وفرغ الماء كلّه وأصبح رحمها جافًّا كأرضيّة حجرتها الخرسانيّة.

يا دي البخت!..

لو كانت أمّها على قيد الحياة لَما مُدّت فوق سريرها وحيدة، صحيح أنّ النسوة حولها من كلّ جانب، لكنّها كحبّة القمح وسط الطحين. كان يوم قد مرّ على انفجار كيس الماء، ولم تكن تعرف

أنّها تتمخّض لولا أن أخبرتها مسعدة. . «يا لهوي يا ابنتي إنّك تلدين!».

كانت تسير من الحمّام إلى السرير عندما اندلق الماء من بين فخذيها، جزعت وأعيتها المفاجأة، لكنّها لم تصرخ أو تطلب الغوث، ودفعها الخوف دفعًا وقفز بها إلى السرير، ماذا حدث لبطنها وما هذا الذي صار ينزّ من فرجها؟

استلقت على ظهرها مضطربة تعاني التعب لا المخاض؛ فلسوء حظّها أنّ طلقها باردٌ. . كحبّة قمح وسط الطحين تركتيني؛ ربّي يرحمك يا أمّي، ربّي يسامحك يا خامل يا ترى أنت فين؟ وعندما عاد خامل من المقهى ـ في الليل ـ وجدها حمراء الوجه مستلقية على ظهرها فوق السرير. . مالك؟ متعبة قليلة. . أنادي على أمّي. . لا تناد على أحد. . لم؟ تبدين متعبة فعلاً!. . لا تناد على أحد! لن أشحذ العطف منهنّ، لم أخرج على أمّك منذ أوّل النهار، ورغم ذلك لم تسأل عنّي والذي يفصل بيننا باب. . . ما المشكلة؟ أعتقد أنّهم لم يتركوكِ إلّا لترتاحي!. . أمّك وأخواتك يتجنّبنني منذ شجارهنّ معي بالأمس. . . بلا خرف نسوان سأنادي أمّي. . . أرجوك لا تنادِ أحدًا واتركني لحالي سأكون بخير.

. . ترى يا خامل لم تركتني ولم تنادِ أمّك، لصار الأمر أهون لو كنت ناديتها، سامحك الخالق!. . . .

ليس قدرها الرحيم هو الذي دفعها لتخبر مسعدة بأنّ ماءً اندفع من بين فخذيها بالأمس، لكنّها رغبة منها في تعذيب قلب حماتها، وإشعارها بالذنب من تركها وحيدة تعاني التعب في

غرفتها دون أن تسأل عنها. . . وفجأة اندفع الماء من بين فخذيها كأنّ طشت ماء دلق. . . «يا لهوي. . إنّك تلدين يا رئيسة، وصابرة على نفسك حتى الآن، يا ربّ سترك!».

جاءت القابلة. ولما تفحّصتها سألت أين زوجها؟. . زوجها في العمل. . . اذهبوا في طلبه. . عمله بعيد، خيرًا لِمَ تريدينه. . البنت طلقها بارد وكيس الماء انفضّ ولا يوجد ما يحفّز بطنها غير أن ينام معها زوجها الآن!. . . يا لهوي ينام معي الآن، كيف؟ يالهوي ماذا أقول له، تعال نام معي، وأنا في هذه الحال وأنتم جميعكم بالخارج تعرفون أنّه داخل لينام معي، مستحيل!. . . إذن فلتتحمّلي الطرق الأخرى.

أعطتها القابلة ثلاث نقاط زيت خروع على منقوع الحِلْبة، ثم أمرت بماء ساخن وفوطة غمّستها في الماء وعصرتها ثم همّت لتكشف صدرها.

قُطعتْ يدها التي مدّتها على صدري، ولسانها كذلك! أتقول لي «أمّال لو صدرك كبير ماذا كنت تفعلين»!

اكشفي صدرك يا مَرَة. . . أهو صدري أهو! جعلت القابلة تفرك حلمات ثدييها بالفوطة المبلّلة بالماء الساخن ساعة أو يزيد، كلّ ذلك والطلق بارد. . البنت طلقها بارد ولن يجد نفعًا معها غير الحقنة الشرجيّة!

كان الطلق قويًّا مؤلمًا، والقطّة الباردة المستكينة تحوّلت إلى لبؤة متوحّشة ممدّدة فوق السرير، والنسوة حولها والقابلة بين فخذيها، والماء الساخن يبرد ويعيدون غلْيَه من جديد.

ستّ ساعات استغرقنها ليقرّرن بعدها أنّ المرتبة القطنيّة للسرير مع رحمها الجافّ حائل صعب دون ولادة بكريّها. . . أنزِلوها إلى الأرض. فحملنها إلى الكليم الخشن المبسوط على أرضيّة الخرسان، وفور أن لمست عجيزتها الطريّة الكليم صرخت. . الأرض قاسية يا أمّ كامل أرجعوني إلى السرير. الأرض أحسن! تحمّلي.

جلست مسعدة فوق رأسها تسقيها الصبر، والقابلة بين فخذيها تخلّص النفس من النفس، والنسوة في روحة ومجيء بالماء المغلي، وكلّما اشتدّ طلقها صرخت. . اصبري يا رئيسة، لا تصبر. . هانت يا بنيّة كفّي عن الصراخ. لا تكفّ. . ضعي كفّك على فمها يا أمّاه. فتضع مسعدة يدها فوق فمها لتكفّ رئيسة عن الصراخ، فتكفّ. . حاسبي يا أمّاه ستعضّ يدك. فترفع مسعدة يدها عن فم رئيسة، فيعود صراخها. . اصبري يا مرة الفرج قادم. . ضعي ضفيرتها يا أمّاه في فمها لعلّها تصمت، فتضع مسعدة الضفيرة بين أسنان رئيسة، فتجزّ بأسنانها حتى تكاد تقطع شعرها، فترفع يدها من الأرض إلى فمها فتنتزع الضفيرة منه، وتصرخ، فتقرصها مسعدة، فتكفّ عن الصراخ.

ويقولون لي: هل أنتِ أوّل من تلد في الدنيا؟ نعم أنا أوّل من تلد في الدنيا. .

تعيد مسعدة الضفيرة إلى فم رئيسة من جديد، لكنّها ـ رئيسة ـ بدلاً من أن تعاود رفع يدها لانتزاع الضفيرة من بين أسنانها، رفعتها إلى أعلى وبكلّ ما أوتيت من عزم، هوت باللطمة على

وجه مسعدة فشوته.. عظامي تنصهر يا أولاد الكلب ألا يكفيكم هذا، تريدون تقطيع شعري كذلك! تسبّها النسوة كلّهنّ، ثم تصرخ رئيسة منفردة، فيأتي راغب إلى الدنيا على الأرض.

نعم، قد حقّ لها الآن أن تتذكّر بكثير من الحقد والغلّ والكراهية ولادة بكريّها راغب، هي الجالسة بمفردها في حجرتها بالمنزل الكبير، والكلّ بالمستشفى. ألهذا الحدّ أصبحت عمليّة ولادة إكرام زوجة جابر حدثًا جللاً؟ هي الآن بين يديْ طبيب، راقدة فوق سرير بمراتب قطنيّة، وأمّها وحماتها وزوجها جابر وخامل حتى ابنها راغب واقفون معها الآن في المستشفى، في حين تقف سميرة ابنتها الصغرى في الشرفة ترقب الشارع وتنتظر العائدين من هناك بالبشرى الحسنة، وكأنّها ـ رئيسة ـ المنبوذة من تلك الفرحة وحيدة في غرفتها.

* * *

عاشت رئيسة وحيدة على ثلاثة ذكور، ويا له من أمر سخيف وخطر في الوقت ذاته! لذا فهي أمام طريقين لا ثالث لهما، الأوّل أن تنخرط في ذكورة إخوتها وتتكيّف وفقها؛ بالطبع لن يميّزها المجتمع الذي تعيش فيه قطّ مثلما يميّز أخوتها، ولكنّها على الأقلّ ستكتسب منهم الصوت العالي والإقدام والتهوّر والفظاظة، قد يتضخّم أنفها قليلاً، قد تفضّل الضرط على قضاء حاجتها؛ فقط بدافع الكسل، قد تصبح جامدة المشاعر، أو بشكل أدقّ غشيمة في إظهار حنانها، والأخيرة تلك مأساة حقيقيّة بالنسبة لامرأة. أمّا الطريق الثاني فهو أن تصبح الفتاة المدلّلة على ثلاثة ذكور، الحصينة بالأنوثة والدلال، فينعكس ذلك كلّه على عجينتها، لكن لا بدّ ألّا يشتدّ قوام العجين أكثر من اللازم، فيختصّ جسدها بالطراوة دون امتلاء، كأنّه قالب مهلبيّة ـ والقالب ليس كالصحن ـ، وتكتسي كعوب قدميها الكريميّة بالحمرة،

كمستطيل من القشدة وقد تشكّل كقالب صغير برزت له خمس أصابع، وصار أسفله أحمر إذ دُهن بعجينة من الفراولة، أمّا باقي الجسد فهو مستوف حقّه من حسن السبك والصنعة، ولن يبدو حنانها فقط كحنان أمّ، بل أكثر، سيبدو حنانها كالحليب، أبيض نقيًّا إذا شابته شائبة فسد، لكنّه إذ خرج طازجًا فألقمته بعض الحرارة طاب، وإذا قست الحرارة عليه فار وعمّ الجميع وتحصّن للأبد من المفسدة.

ولأنّها ـ رئيسة ـ اتّصفت مذ أينعت بسلامة الذوق في تقدير الأمور، كان يسيرًا على ظنّها أن يغافلها؛ إذ هداها لسلك الطريق الثاني، إيهامًا منه بأنّه الأقلّ وعورة بين كِلَا الطريقين، والمرء حين يصدّق ظنّه بعد فرط ثقة فيه، يفعل مثلما فعلت رئيسة، حين تصيب طريقًا مشقوقًا في درب الحظّ والنصيب، درب القدر والظروف، فسلامة امرأة مولودة بين ثلاثة ذكور لا تتطلّب قوّة قتاليّة ونفسيّة معقولة لمقاومة التكيّف فقط، وإنّما يتطلّب بالضرورة أمًّا طموحة وأخوة واعين، لكن أمّها ماتت وتركتها صغيرة، بل أصاب جهل أمّها أنوثة رئيسة في مقتل؛ ذلك أنّ دورتها الشهريّة قد جاءتها في سنّ مبكرة، جاءت مرّة وحيدة ثم انقطعت شهورًا، ثم عادت وانقطعت شهورًا أخرى، وأمّها في ذلك الوقت ـ رغم تطوّر الطبّ ـ كانت الفطرة قائدها الوحيد، وحدوث أمر كذلك بالنسبة لطفلة صغيرة ليس بالأمر الجلل، لكن جسد رئيسة صار كعين ماء مكتومة فوهتها، فكل شهر تأتي الآلام وحيدة دون دم الحيض، وكعين ماء أو كبئر مكتوم الفوهة آسن الماء داخله فنمت الطحالب غزيرة حوله؛ انتشر الشعر في جسدها! وبعد إلحاح

للعلّة على جسد رئيسة، صحبتها أمّها للطبيب الذي قال إنّ داء ابنتها لا يذهبه غير حبوب منع الحمل! ولم تسأله أمّ رئيسة عن دواء بديل أو طريقة أخرى، بل هزّت رأسها متفهّمة لكلّ ما قاله الطبيب، وبعد أن خلعت قدمها من عنده ألقت بكلّ خرافاته في أقرب «رشاح»، فالدواء الذي وصفه الطبيب ما هو إلّا خزي وقلّة حياء، ولم يكن أمام رئيسة للشفاء من علّتها غير الدواء الذي نصحت به أمّها «التحمّل والصبر على الابتلاء»، فكلّ عللها أمور بسيطة ستزول فور أن تتزوّج.

ولم تصبر أمّ رئيسة على الحياة حتى ترى ابنتها عروسًا، فقد ضاع عمرها صغيرةً حين هبّت فيها نار فرن الخبيز ذات صباح فاحترق صدرها وبطنها، وانطفأت حزنًا وألمًا على ثدييها المنصهرين وبطنها المسكوع، فتمنّت الموت وماتت تاركة رئيسة وحيدة في أرض المعركة، تقاتل التكيّف في معاشرة أربعة ذكور (أخوتها وأبيها)، وجسدها الذي حُبس الدم بداخله وزاده شعرًا وامتلاءً. . ليس لها من مُخلِّص في الأرض سوى الزواج، وهو خلاص يعتمد أيضًا ـ رغمًا عنها ـ على الحظّ والقدر.

* * *

يا ماشطة ارضي لها المقصوص، وارمي لها بين الفروق دبّوس، يا ماشطة ارضي لها لِبة،

وارمي لها بين الفروق دبلة..

عندما دقّ خامل بابها كان ميسور الحال، أرضه الكبيرة ـ بعض الشيء ـ بالمدينة وبيته المزمع بناؤه على أعمدة، أنطق الزغاريد في عيونهم. رضت رئيسة ـ وأسرتها ـ به زوجًا على الفور، إنّ كامل / خامل هو هبة القدر الذي لم يضنّ عليها هذه المرّة، هذه المرّة هي متأكّدة أنّه الخلاص لا شكّ.. لو لم يكن «ألثغ» في حرف اسمه لقلت بأنّ السعادة تلك ليست من نصيبي، لكنّه ليس حلمًا، هو ليس كذلك بالطبع، لولا تلك اللثغة! إنّه معيوب رغم ماله وجماله.. لذا فهو من نصيبي، وليس من شكّ الآن أنّ السعادة تبنّتني.

الحمد للخلّاق أنّه ليس كاملاً وبه لثغة في لسانه، وإلّا كنت ظننت أنّه سيموت قبل زواجنا، أو أنّني سأموت محروقة مثل أمّي في يوم الصباحيّة، أو أنّ مرضًا عضالاً سيصيب إيّانا، أو أنّ أولادي منه سيولدون مشوّهين، أو أنّه سيكون عاقرًا ولن ننجب أبدًا، أو أنّ الزيجة لن تتمّ أصلاً بسبب شجار بينه وأبي على أيّ شيء من تجهيزات الزواج، أو أنّه سيتشاجر مع أخي ويبطح أيّ منهما الآخر بسبب خلاف بسيط، في جلسة الأنس التي سيدعوه إليها أخي كبادرة كرم منه لتوثيق الصلات فيما بينهم، أو أنّ أمّه ستموت ليلة الزفاف وأعيش شهورًا أو سنين بعد ذلك في نكد، لأنّهم سيقولون بأنّي نذير شؤم، أو أنّه سيكتشف أنّي لست بكرًا ليلة الزفاف وتصير فضيحتي تذاع على الحمير بين الغيطان، رغم أنّي بكرٌ كجنين! لكنّ خامل ليس حلمًا، فالجميل الغنيّ معيوب. وهذه بُشرة خير.

العرس كان زفّة على الأقدام من عصارات الزيتون إلى أراضي الجوّافة، غناء النسوة موسيقاه الوحيدة، بيضة بشريّة على الأرض والعروسان في منتصفها تقريبًا، ومن حين لآخر يتوقّف المسير ليتقدّم رجلان أو أكثر فيرقصان أمام العروسين، بينما لا يتوقّف الحاوي الذي ينفخ النار عن الدوران، فمرّة يظهر من اليمين وأخرى من اليسار، أمام الجمع وفي خلفه، ويندسّ داخل البيضة خلف العروسين فيظلّلهما بناره، فيبدوان ومن خلفهما تسطع الشهب في وضح النهار، فصار العروسان في تألّقهما كالصفار في منتصف البيضة، ما أزاغ بصر النسوة المطلّات من الشرفات نحوهما. العروس رئيسة في لباس عرسها الأبيض

وأكمل زينتها والطرحة فوق ضفيرتيها المجدولتين، عيناها كغزالة وليدة، وخدّاها تفّاحتان دغدغهما النحل في رفق، فالعروس دائمًا أجمل من العريس، لكن عين الحسود تركت العروس لتصيب العريس الذي كان يرفل بأبّهة في بذلته الزرقاء بربطة عنق بنّيّة، حيث لسعه نفّاخ النار ـ حين أطلق شهبه خلفهما ـ في قفاه، ورغم ذلك تماسك خامل ولم يصدر أنّة ألم، ولأنّها عين صفراء التي حسدته، أرقتْ ربطة عنقه المحكومة حول رقبته قفاه الملسوع، ففكّها، وصار كلّما ألهبه اللسع يرسل ياقة البذلة إلى الخلف حتى إذا وصل المسير عند البيت، كادت أزار البذلة ـ والتي مكانها الأصلي فوق سرّته ـ تلامس بلحة عنقه ما جعل السائرين يضجّون بالضحك، وذلك حين انكشف العروسان وظهر خامل بهيئته العجيبة بعد أن توقّف المسير أمام بيت العريس منقسمًا إلى صفّين متقابلين، لكن جابر ـ ويا لبراعته ـ استطاع أن يحوّل السخرية السلبيّة من أخيه إلى ضحك إيجابي، حين أطلق نكتته حول أنّ أخاه لا يطيق صبرًا حتى يصل إلى غرفة النوم، فشرع في خلع ملابسه في الشارع! وساعده في ذلك الحاوي حين ألقى مياه النار على الأرض فصارت حلقة مشتعلة قفز إليها جابر وانصهر فيها رقصًا، ووقفت رئيسة بجوار خامل بعد أن عدّل هيئته تراقب الراقصين، الذين تناغموا في نعومة مع موسيقاها الداخليّة التي سيطرت عليها منذ تركت بيت أبيها. . «يا ماشطة رضيتي ليَّا المقصوص، ورميتي لي بين الفروق دبّوس، يا ماشطة ورضيتي لي لِبة، ورميتي لي بين الفروق دبلة، ورميتي لي بين الفروق دبلة. . » أحكم خامل يد عروسه في كوعه، وسار. . ورميتي لي بين

الفروق دبلة، ترميهم سيّدة بالملح والفول وبذور البرسيم.. ورميتي لي بين الفروق دبلة، الزغاريد من داخل البيت وخارجه.. ورميتي لي بين الفروق دبلة، وقفا أمام باب منزلهم الذي سدّته مسعدة بجسدها.. ورميتي لي بين الفروق دبلة، شمّرت مسعدة جلبابها حتى بان سروالها الأبيض الذي تلبسه أسفله، ثم طلبت من خامل الدخول أوّلاً فدخل.. ورميتي لي بين الفروق دبلة، وسندت جذعها إلى جانب الباب رافعة رجلها اليمني بأقصى ما لديها من قوّة ساندة إيّاها على جهة الباب المقابلة.. ورميتي لي بين الفروق دبلة.. مطالبة زوجة ابنها أن تعبر الباب.. عدّي يا بنتي.. كيف؟!.. عدّي من تحت رجلي.. (وبعد تردّد) حاضر.. ورميتي لي بين الفروق دبلة!

كان لا بدّ لرئيسة إذا أرادت العبور أن تنحني كثيرًا جدًّا لتتمكّن من ذلك، وكاد قصر قامتها يساعدها لو لم تكن مسعدة هي الأخرى قصيرة، وانحشرت المرأتان في الباب، فرأس رئيسة الذي اتّخذت وضعًا أقرب إلى القرفصاء تعثّر في ساق مسعدة المفرودة على الحائط فانحشرت المرأتان في فتحة الباب الضيّقة، وحين جاهدت رئيسة للمرور، وقعت المرأتان، مسعدة فوق رئيسة على الأرض، وكما صان سالم أخاه أمام الناس؛ على الفور سترت سيّدة وأختها أمّهما وزوجة أخيهما وغطّتا المشهد بجسديهما تمامًا، حتى استطاع خامل أن ينقذ أمّه وزوجته ويعيدهما واقفتين كما كانتا.. حقّك عليَّ يا أمّاه، قالت رئيسة لأمّ كامل التي لم تردّ، وأولتها وابنها ظهرها واتّجهت خارجة إلى الشارع، فأرسلت رئيسة يدها مجدّدًا إلى كوع خامل وسارت به

إلى غرفتهما. . *قالوا شقيَّه قُلتْ من يومي، قَسَّمُوا النَّوَايب طِلِعْ الكبير كومي، يا مَرْت أبويا يا عُقْدة اللِّحْلاحْ، متى تموتي وأمسك المفتاحْ. .*

* * *

لم تستغرق مسعدة كثيرًا كي تعي الدرس، لكنّ الزمن أمهلها طويلاً لإيجاد خطّة بديلة. لم يشغل بالها ـ حين أسندت جانبها الأيسر إلى العمود الأيمن من باب شقّة جابر ومدّت يدها اليمنى بزاوية منفرجة إلى العمود الآخر المقابل له ـ غير تلافي تكرار الحادثة القديمة، لكن إكرام حين مرّت أسفل ساعدها سعت العديد من الأفكار بذهنها المتّقد وخيالها الحرّ ـ دائمًا ـ؛ إنّ مسعدة تبتغي التقارب والتآلف عنوانًا لعلاقتهما الجديدة، تريدها أن تكون تحت إبطها؛ خليلتها؛ صديقتها؛ تابعتها؛ شريكتها في كلّ شيء، ولو كان الأمر غير ذلك، فلِمَ شذّت عن التقليد القديم؟

الخواطر الفرحة التي مرّت بذهن إكرام بعد أن عبرت باب حياتها الجديدة، أشرعت قلبها على مصراعيه للسعادة وهناء البال، سعادة من تلك التي تتصالح مع القدر فورًا وتعده

بالإخلاص الأزلي عرفانًا بجميل صنعه، ابتداءً من اليوم ستحاول التقرّب بكلّ ما أوتيت من قوّة إلى أمّها الجديدة مسعدة.

لفرط سعادتها تفتّحت شهيّتها على طلب بطّيخة للاحتفال، ورغم أنّ الموسم مع حرارة جوّه ليس أوان البطّيخ، لم يشأ سالم أن يعكّر صفو خليلته في ليلة مفترجة كتلك، فشرع إلى الباب وهو لا يزال ببذلة الفرح، مناديًا على أخته سيّدة وابن أخيه راغب طالبًا منهما أن يجلبا له بطّيخة.

وبالرّغم من أنّ التدلّل والتمنّع حقّ لإكرام حتى تصل البطّيخة، إلّا أنّها لم تستغلّه، فقد حسمت الأمر سريعًا في داخلها متّخذة القرار بالتهيّؤ للحبّ، وجلست قبالة مرآتها تطلب من سالم مساعدتها في فكّ طرحة رأسها.

عانى سالم / جابر الأمرّين لإذابة الحرج فيما بينه وزوجه، ذلك الحرج الذي ظنّا ـ منذ نصف ساعة فقط ـ أنّه ليس موجودًا بالأساس، ولأنّي أردت أن أكون رحيمًا بإكرام التي عاهدتني الإخلاص بصفتي راعي أقدارها ومسيّرها، قرّرت تنبيهها وزوجها إلى ذلك الحرج الخسيس، والذي كنت أخبّئه لهما ليهاجمهما بغتة وهما في السرير؛ كنت بين قرارين إمّا أن أجنّبهما الحرج أو أنبّهما إليه! واستحسنت الثاني، لأنّ الأوّل كان سيبدّد أحلامهما وذكرياتهما عن هذه الليلة، فوضعت لهما ستًّا وثلاثين بنسة ودبّوس ما بين الطرحة وشعر إكرام، كانت بمثابة ستّ وثلاثين إشارة لهما.. والحاذق يدرك سريعًا! ولأنّهما كانا معصوبيْ العينين والحسّ بالفرحة، اضطررت آسفًا لكثير من شدّ الشعر

وقليل من تقطيعه؛ وبدلاً من أن أخلق أنا الحرج لأفاجئهم به، استولدته يد جابر الحائرة بين ثنايا شعر إكرام، فاكتشفاه سويًّا أخيرًا. وللحقّ أنا سعيد بتلك البادرة الطيّبة منّي، ليس لأنّها سلوك طيّب من جانبي وإنّما لأنّها تعدّ أوّل تمرين لهما على خلق الأشياء، الآن يستولدون الحرج، وعمّا قريب سيقوم أحدهما باستيلاد جنِّيّة الأحلام، والتي كادت الحكايات أن تنسيني إيّاها، كما كاد تورّطي مع إكرام ينسيني بناء ذكرياتها مع جابر، أو كاد ليشتّت ذهني فينقلني إلى شخص آخر دونهما. والآن بعدما ولّدا حرجهما بأيديهما، فقد خرج غريبًا نوعًا ما عن الحرج بمعناه الأصيل، إنّه شيء أكبر من ذلك، شيء صدمها هي نفسها إذ أحسّت به.. أَتعرف! هو شيء مثل الخوف، بل إنّه الخوف ذاته. في البدء عندما كنت تشدّ شعري خطأً بينما تفكّ منه البنس كنت خائفة دون إدراك، لم أكن أعرف ممّا أخاف ـ ولم يكن ذلك خوف منك يا سالم ـ وبعد فترة قليلة عندما انتقلنا إلى السرير، أيقنت أنّ هناك شيئًا يُسحب منّي، شيئًا ظننت العمر كلّه أنّه ملكي وحدي، لكنّي اليوم وعيتُ أنّ هناك شخصًا آخر يشاركني فيه بل ويطالب بحقّه في تملّكه!.. كنت تدفعينني بقوّة شديدة لم أكن أظنّكِ تملكينها، وهي قدرة أربكتني، ومن فرط توتّري ضربتك على ساعدكِ لأنّه كان يحول بيننا. فكلّما أبعدتني اشتدّ غضبي وحنقي عليك، وعندما لنتِ لي..، صحيح لماذا لنتِ لي فجأة هكذا؟... عندما دقّت سيّدة الباب وجاءت بالبطّيخة، أيقنت أنّنا لسنا وحيدين في هذه الدنيا وأنّ هناك أناسًا بالخارج ينتظرون نتيجة ليلتنا! خفت أن أفشل، ولم أشأ أن أستجلب سخط أمّك

عليّ في أوّل ليلة لي في بيتها!.. أتدرين شيئًا؟ بعد أن لنتِ لي اكتشفت أنّي لا أعرف ماذا أفعل! إذا قلت لكِ كيف بدا الأمر معي ستسخرين منّي.. لا لن أسخر، وحياتي قل لي.. بدا الأمر وكأنّني أحاول ارتداء حذاء جديد في الظلام، لم أكن لأرى فتحته ولم أكن أعرف كيف أضع رجليّ بداخله!... هكذا إذن! ولهذا انتقمت منّي بالتهامك البطّيخة كلّها وحدك! يا رجل أنت لم تعطني قطعة واحدة!.. أوّلاً أكلت البطّيخة قبل أن تليني، وكان ذلك من فرط توتّري، ثم هل أنت طالبتني بقطعة ومنعتها عنك؟ أتعرفين شيئًا، أظنّ أنّ أكلي للبطّيخة كلّها هو الذي حرّكك لتليني، بالتأكيد خفتِ من أن آكلك كما أكلتها.. يا سلام يا أخويا!... يا حبيبتي من الصبح أحضر لك شادر بطّيخ بأكمله، عيوني لك! أتعرفين لم سألتك كيف كان الأمر بالنسبة لك... لم؟.. لأنّي لا أريدك أن تتشكّي لأحد في الصباح عمّا خفتِ منه الآن، بل لا أريدك أن تشتكي لأحد غيري عن أيّ شيء مطلقًا، ولأنّي أريد أن أفعل الأمر نفسه معكِ، كنت صادقًا في وصف الأمر بالنسبة لي. أتعديني ألّا تخرج كلمة بيننا خارج هذا الباب؟ حتى وإن أغضبتك أو أحزنتك في أيّ يوم، تعالي واشتكي منّي إليَّ، وأنا سأنصفك على نفسي سواء كان معك الحقّ أو لم يكن... حاضر يا حبيبي «أوعدك»!

كم تحبّينني يا إكرام؟... أحبّك كأنّك آدم الدنيا يا سالم!

لعلّ إكرام كاذبة فيما قالت لسالم، أو بشكل منصف هي لم تكن دقيقة، فهي تحبّ سالم كأنّه آدم الجنّة لا الدنيا، بينما يتّسع

قلبها لكلّ خلق الدنيا تقريبًا، وفي أعماقها تكنّ ودًّا شديدًا ليحيى زوج أختها، فهو أقرب إلى الرحمة التي رجّحت كفّتها على كفّة العدل فدخلت الجنّة إلى آدم... زوّجهما يا هيكل.. الولد تربية امرأة يا يحيى.. كلّنا تربية امرأة يا أصيل، قم بنا نرى شقّته! علمت أنّك لم تعاينها حتى الآن!... مستحيل أن أذهب إلى هناك... أذهب أنا يا أخي وسآتيك بهم... لقد نقضوا اتّفاقهم معي.. سآتيك بهم وكلّ شيء سيسير بالأصول يا ابن عمّي...

* * *

غرفتك بها أربعة حوائط: حائط تشتكين له حالك، وثان يردّ عليك، وثالث تبكين أمامه، ورابع تضربين رأسك به!

طنين الدبابير في أذنيها يذكّرها بكلمات أمّها، بينما هي لا تعرف كيف ستقابل خالها ـ الذي جاء يهنّئها في الصباحيّة ـ وهي بتلك الحال، يداها السمراء مفحّمة وجلباب بال يستر جسدها، كانت حفيظتها دائمًا ما تتغلّب على تأنّيها وصبرها دون تقدير للمواقف! فمسعدة التي هنّأتها في الصباح تعلّلت بالخروج سريعًا لتساعد النسوة في غسيل صحون الفرح، لم تكن تقصد غير أن تكون خفيفة وتتركهما وحيدين أطول وقت ليهنآ ببعضهما بعضًا، لكن إكرام لم تشأ تفويت أوّل فرصة للتقرّب إلى أمّها الجديدة، فتركت زوجها وخرجت في ظلّ مسعدة، فَحَّمت يديها وأبلت جلبابها الجديد، فدمعت عيناها حرجًا حين وقعت فريسة لعينيْ خالها المهنّئ، والذي اعتبر الدموع في عينيها بكاءً لحالها

الجديد. . وهكذا، خرج أوّل خبر عنها إلى بيت أبيها لا يسرّ عدوًّا أو حبيبًا.

وبالرّغم من ذلك، فإنّ مظهرها أمام خالها لم يشغل بالها بعد ذلك كثيرًا، كما شغل بالها كمّ الصحون التي غسلتها وباقي النسوة. الأكل كثير بغير حساب في هذا البيت الجديد، وكلّه بالسمن البلدي، واللحم على اختلاف ألوانه، هي التي خرجت من بيت المعلّم الأوحد، وبيت المعلّم الأوحد يعني أنّه في أقحل الظروف تستطيع أمّها باقية أن تدّخر له وجبة اللحم بينما يأكل الصغار البصل المحشو أرزًّا، فالأرزّ بالزيت في عيشتها الغابرة كان أكثر أصناف مائدتهم حضورًا: فيؤكل بالفول الحيراتي ويؤكل بالعدس ويؤكل منفردًا، بينما في بيت خامل يغيب الأرزّ ليحلّ محلّه الخبز ليس فقط لخلفيّة آل خامل الجنوبيّة، وإنّما لأنّ الخبز في بيتهم مربوط بالغموس، والغموس في بيت خامل دائمًا طبيخ بالسمن البلدي واللحم على اختلاف ألوانه، بل إنّها كانت ترمي بيدها زلعات السمن المزنَّخ الذين كانوا ينسون استعمالها لوفرتها، وهنا زادت إكرام القدر وعدًا جديدًا بأن تتحمّل كلّ أهوال هذه الجنّة شرط ألّا تفارقها، ورغم ذلك لفظتها تلك الجنّة الجديدة في أقصى حدودها مع النار، فإنّ معدة إكرام لم تألف مطلقًا ذلك الأكل الجديد، وتلك في رأيها ثاني ضربة لها في جنّتها الجديدة. . لا تحزني يا إكرام لن يتخلّى خالقنا عنّا. . لست حزينة يا سالم. . لا أعرف ما الذي حلّ بكامل. . ما حدث كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً، أوَكنّا سنأكل في بيته طوال العمر؟ كان لا بدّ من يوم ننفصل فيه عن أخيك في مأكلنا ومشربنا. . لكنّ

اليوم جاء باكرًا جدًّا، ومرتّبي بالكاد يعيلني وحدي في دراستي التي أبليتِني بها وأنتِ الآن حامل.. «إخصَ عليك يا جابر، دراستك التي تعايرني الآن بأنّها كانت فكرتي هي التي ستنقلك من مجرّد ميكانيكي تصلِّح السيّارات إلى مهندس يصنعها.. ثم ألست القائل بأنّ خالقنا لن ينسانا، وهو لن ينسانا فعلاً، إنّ أملي به يفوق كلّ الحدود وسيأتي يوم يكون فيه بيتنا محلّ كلّ الخيرات لا بيت أخيك كامل.. لو فقط أعرف ما سرّ انقلابه المفاجئ عليّ... أنا أعرف... قولي إذن!... رئيسة تغار منّي! تغار منّي حتى من قبل أن آتي إلى بيتكم هذا، تغار منّي حتى لأنّي لا آكل من أكلكم وأنفر من رائحة ليّة الخروف في الطبخ، ولأنّي أطلب الأرزّ خصّيصًا مع الأكل لا الخبز، وتغار منّي لأنّي أكثر مهارة منها في الطبخ، فاللحم المشوّح الذي طبخته لكم منذ مدّة وأعجب خامل، حين طلب منها أن تطهوه، أحرقته ظنًّا منها بأنّه هكذا يصير مشوّحًا، كما تغار منّي بسبب الجبن الرومي التي لم يكن أحد في البيت يعرف عنه أيّ شيء قبل أن آتي، ولأنّي ألبس الجيب لا الجلباب مثلها! والآن هي التي تمسك مصروف البيت لأنّ زوجها هو الذي يصرف عليه، ولهذا أقنعت زوجها أنّ أبناءه أولى بما نأكله مدلّلة أنّنا نعيش في رغد بسبب الجبن الرومي الذي تراه في يدي، لكن والله لن يخلو بيتي من الجبن الرومي بل وأكثر من ذلك سأدعو راغب وسميرة كلّ عشاء ليأكلا منه معي.. يا ألله إنّ النساء لعنة، ما أتفهكنّ! وكنت أظنّ قبل أن أتزوّجك أنّ بك عقلاً... غدًا تقول إنّ إكرام قالت!

وجاء الغد سريعًا، لكنّه لم يأتِ بفرحة أو انتصار كما

توهّمت إكرام، رغم أنّ البيت كلّه كان ساعتها في فرحة إلّا هي. إنّ الحاجّة مسعدة قد عادت من أراضي الحجاز، عادت تحمل لخامل ورئيسة وأولادهما محبّة بينما نسيتها وزوجها، لم يكن ليؤلمها كثيرًا أنّ مسعدة اشترت لخامل وزوجته وأبنائهما هدايا من أرض الحجاز ونسيتهم، ولم تكن لتحبس نفسها في المطبخ تسيل الدموع من عينيها، أو لكانت كلمات المواساة من مسعدة جبرت بخاطرها.. يا ابنتي لقد هاديت خامل وزوجته وأبناءه بشيء من الحجاز، لأنّي أعلم أنّ ابني هذا لن يزوره لا هو ولا زوجته قطّ، بينما أنت وزوجك لا تزالون صغارًا وبوسعكم زيارته يومًا ما.. لولا أن رأت نظرة صفراء في عينيْ رئيسة توحي بانتصارها عليها، وكأنّ عينيها تتحدّثان: نحن ملوك هذا البيت يا إكرام.. لا أنتِ ولا زوجك!

* * *

كان صعبًا على قلب الحاجّة مسعدة المغسول حديثًا بماء الحجاز الدعوة على أيّ من أبنائها، خصوصًا لو كان من دعت عليه هو ابنها الأكبر وسندها في هذه الدنيا، لكنّ الغضب المتّقد الذي ملأ قلبها الكبير ـ وبخّر مياه الحجاز النقيّة التي غلّفته ـ منحها للحنق على خامل؛ ساعة.. إلٰهي يا بني لا تفرح بولد ولا تنعم بكده، وأنت يا راغب لا تُعمِر ولا تُطمِر.

لم يجرؤ خامل على العدو وراءها ليطيّب خاطرها، ولم تذهب خلفها رئيسة ولا راغب الذي لعنته.

شهر بكامله أمضته في الحجاز كانت قبله سيّدة البيت، تمسك مصروفه وتوزّع خيره على الجميع.. «أغيب شهرًا وأرجع ألاقي بنت الفقّي مدوّرة البيت، النطع لم يختلف كثيرًا عن عمّه، أخوه الصغير يصرف على تعليمه وزوجته بطنها شبران أمامها،

يقوم يمنع عن أخيه الأكل معه، ويلفظه وحيدًا في شقّته؟.. معلهش يا أمّاه، جابر رجل، وهو يعني أخوه كان سيصرف عليه طول عمره!.. أمّا أنت وسخة وخبّاصة صحيح يا سيّدة! لمن تحامي؟ يبدو أنّك صرتِ كزوجك معدومة الخير!».

وفّرت مسعدة معاشها من عمل زوجها بشركة الإسمنت لسالم وزوجته، انتزعته من عين خامل الذي كان موكلاً بقبضه عنها من الشركة قبل ذلك، لكنّها أبقت على عين رئيسة، ولم تحاول استعادة دورها القديم في الزعامة وإمساك مصروف البيت كما كانت؛ هي رفيعة الشأن لا تقع في مثل ذلك الخطأ أبدًا، كذلك فإنّها لن تقع في فخّ مقاطعة ابنها والانفصال عنه في العيش، فهي إن فعلت، كم كانت ستأخذ وقتًا في البعد؟ أيّامًا أو شهورًا أو حتى سنة! وماذا بعد؟ كانت ستعود إليه مجدّدًا بعد صلح، لكنّها عودة مكبّلة بشروط الصلح الجديدة، ولا بدّ لها أن تقبل الوضع الجديد كما هو عليه؛ ضيفة في بيتها! لكنّها الآن أوصلت الرسالة مفهومة لا ريب إلى ابنة الفقّي، لا شيء تغيّر.. «أخذتِ منّي مصروف البيت يا مغدورة لكنّ البيت ملكي لا يزال والعيال ملكي كذلك، أغضب عليهم وألعنهم وإن غضبوا، وأجلس على قلبك وإن فطستي!».

كانت دون العاشرة حين أبصرها وحيدة من دون البنات.. مَنْ تلك يا أولاد؟.. إنّها مسعدة بنت خالتك.. كيف كبرت هكذا بعيدة عن عيني؟

مصلح ـ الفتى الجميل، شبيه الشمس في صبح الربيع، أقفز

قلبها إلى حلقها حين سكب في عينيها ابتسامته، بينما لم تدرِ مسعدة أنّها أسرتْ كهرباء الناحية كلّها في جسده حين طلّ الخجل من ثغرها المبتسم، فظلّ طوال الليل يعدّ النجوم في مقلتيها، وحين حلّ الصبح عليه ضيفًا ثقيلاً لم يجد غير الزواج منها ترياقًا لروحه التي سالت، فركب حمارًا ناصعًا، وأمسك سعفة نخل وطاف دايرة الناحية، وأخذ يهتف: مسعدة، قتلتني مسعدة، قتلتني والله ياولاد.. فزوّجوهما. ومن يومها صار تقليدًا في البلد أن يلفّ كلّ طالب ودّ أو حبّ الناحية ليشهد الخلق كلّه أنّه قتل بسهام فلانة بنت فلان، وهكذا قُتل مصلح صغيرًا دون الأربعين من عمره، قتلته لعنات كلّ رؤوس بيوت البلد التي انصبّت على رأس مبتدع ذلك التقليد، فاضح بناتهنّ وكاشف أعراضهنّ، وحين فطنت مسعدة أنّ سرّ تدهور صحّة حبيبها هي تلك اللعنات، كان الوقت قد تأخّر، ولم تستطع لا أحجبتها ولا تمائمها أن تصدّ عن رجلها خمس عشرة سنة من الدعاء عليه.. فمات.

تودّ الآن لو ماتت معه، أو كانت هي التي لفّت الناحية على الحمار فأصابها الدعاء؛ أو لو لفّتها الآن لتخبر أهل البلد بيتًا بيتًا أنّها مسعدة التي جرى التقليد بسببها. لكنّها حين عادت ذكرى الحمار برأسها صلبت قامتها كما كانت تصلبها الحياة بطولها، ولم تعد بحاجة أن تنوح على زوجها الذي تركها فريسة للحياة، فلا هي ناحت عليه من ظلم عبد الصمد لابنها، ولا هي ستنوح عليه الآن لقسوة خامل على أخيه الصغير، فإنّ الطيف الذي كان يأتيها فيه مصلح ـ أحيانًا ـ متخفّيًا في ظلّ الشمس يسير على حماره ويهتف «قتلتني مسعدة»، فتردّ عليه «والله قتلتني أنت يا

حبيبي»، لن يتركها بعد ذلك، بل سيأتيها كلّ صباح ليغسل كلّ أحزان ليلتها السابقة، ويزيد روحها بأسًا وقوّة في وجه اليوم الجديد، فيظلّ الزمن أمامها قعيد الهمّة عاجزًا عن طأطأة عزيمتها أو إتلاف حسنها، ليجدّد تأكيده لها بأنّها ما زلت تستحقّ أن يموت من أجلها رجل!

لكن رئيسة، تلك الغجريّة! أتظنّ أنّها ستنتصر عليكِ، أو أنّها انتصرت بالفعل يا مسعدة؟ كلّ ذلك لا يهمّ، فإنّ الطيف يأتيك راكبًا ظلّ الشمس المسرّب من فتحة باب شقّتها ـ رئيسة ـ لا من فتحة باب شقّتك، لا بدّ لك أن تحتمليها إذا كان بابها هو باب الخروج من هذه الحياة مرهفة كما دخلتِها، دعي الحياة واغتسلي بماء الفجر، ثم صلّي قلبك بركعتي الصبح، بعد أن تمشّطي خيوط الذهب المتبقّية في رأسك، لتقابلي حبيبك نقيّة مع باب رئيسة، تداعبين طيفه في الظلّ كما تداعبه الأطفال وكما اعتدتِ في أيّامك الخوالي، ومع الظهر حيث تأذن الدنيا ببدء توقيتها الواقعي تطوفين ببناتك للسؤال عليهنّ، وتسلّمين عملك إلى ملائكتك في العصر ببيتك، حتى إذا متِّ لفظتِ أنفاسك فوق سريرك غير مشرّدة في الطرقات، وحين يرى ملائكتك أنّ عملك ليس كفيلاً بعد لكي تقبلك السموات، تبكين شوقك بالمسجد بين المغرب والعشاء، وإذا انقضى ليلك تنامين بفراشك في انتظار طيف النهار الجديد.

* * *

هل ألمّ بأمّها مكروه؟

فَلتَ النهار ولم تزرها بعد، ويريد فوزي اصطحابها لشراء ملابس لها ولابنتها.

لن تترك المنزل قبل أن ترى مسعدة، لكنّها في المقابل تكره الصعود إلى بيت رئيسة، أو بشكل أدقّ تكره رؤيتها.

ليتها ذكّت ذلك الكره في قلبها على قلقها من حدوث مكروه لمسعدة. كادت لتطاوع كسلها وتؤجّل زيارة أمّها للمساء لولا رهبتها من لعنات مسعدة على بناتها العاقّات اللائي لفظنها وحيدة، وهي التي لم تتأخّر في وصالهنّ يومًا ـ فتحرّكت رأسًا إلى السلّم: لِمَ لَمْ تمرّي عليّ يا أمّاه؟

ـ خير! كفى الله الشرّ..

ـ والله يا ابنتي ما تركت جلستي تلك منذ الصباح..

ـ لم؟...

ـ عليلة! وهذا يوم شؤم، لا طلعت له شمس أو بان لها ظلّ..

ـ كثر خير الدنيا يا أمّاه! الشمس عندك ليل نهار، بينما شقّتي لا يزورها الظلّ حتى...

ـ كيف حالك يا سيّدة؟...

ـ بخير يا رئيسة، نحمده، كيف حالك وحال كامل، يبدو أنّه ليس موجودًا..

كانت تستدلّ بوجود أخيها أو عدمه من رؤية ذلك القطّ، فمنذ جلبته أمّها إلى منزلهم، لم تعد بحاجة لسماع صوت أخيها خامل أو ملاحظة حركة المنزل كي تعلم بوجوده من عدمه، إذا كان القطّ موجودًا فخامل بالخارج، وإذ لم يكن فإنّ خامل بالمنزل، وذلك لا يرجع لكراهية خامل للقطط وحدها وإنّما لاعتقادها ـ والذي ستزكّيه الأيّام بعد ذلك ـ بأنّ هذا القطّ ليس إلّا روح خامل أخيها... شايفة يا أمّاه القطّ الوسخ كيف يركب القطّة على العتبة، أليس به خَشْيَة! نحن نجلس أمامه مباشرة، لست أعرف لما لم تسمّوه كامل بدلاً من فتحي، حتى إنّ اسم كامل أليق به! انظري كيف يعشق الخبص خارج باب الشقّة! المهمّ أفوتكم بالهناء لأنّي ذاهبة أشتري ملابس مع فوزي، أتريدين شيئًا يا رئيسة! سلام يا أمّاه.

ليست رؤيتها لذلك القطّ يركب قطّة أمام شقّة خامل إلّا

فرصة جديدة لكي تكيد رئيسة، وتذكّرها بذلك الشبه بين الاثنين خامل والقطّ فتحي، فمنذ حادثة القيء القديمة، وسيّدة لا تفوّت فرصة لتعكير هناء رئيسة وغَمِّ معدتها؛ هي على علم بزهد أخيها خامل في زوجته منذ وقت بعيد، وكانت تصدّق شكوك رئيسة بأنّ زوجها على علاقة بنساء أخريات، وبالرّغم من نفاذ بصيرتها تلك إلّا أنّها لم تلحظ حقد رئيسة الذي تشكّل في الأرض قطعة زجاج؛ سكّين رهف نغزها دون إيلام يذكر واستقرّ في الإصبع الكبير من قدمها دون أن تدري، كما لم تدر كذلك عللاً كثيرة أخفاها جسدها عنها سنين عدّة، لكن فضحتها تلك الزجاجة.

كانت حامل في شهرها الثالث، حين قرّر فوزي حصالة البِرَّ عليها بكسوة الشتاء. شقّا الطريق المرصوف بالزفت والقطران ـ والذي كان منذ زمن حدائقَ للجوّافة ـ على أقدامهما حتى وصلا إلى البحر فاستقلّا الحافلة. لفّا ودارا سوق البلح ساعات وساعات حتى ظفر زوجها فيما يرغب بالسعر الذي يريد، وعادا إلى البيت ثم ناما سالمين.

. . . والله يا أختي عدنا إلى البيت في هناء، وجلسنا لتناول العشاء، ثم نمنا وكلّ شيء على أتمّ حال، وصبَّحت وبقدمي شَأْفٌ. جاءتني إكرام ورأت رجلي وطيّبت خاطري، ثم صعدت لترى بيتها، وما هي إلّا ساعة من الزمن حتى نزل أخوك جابر وأمسك بتلابيب فوزي، وليس في فمه غير: «يا بخيل يابن الكلب. . أختي حامل فتأخذها آخر الدنيا على رجليها! ثم توقّفها طول الطريق في العربة على قدميها، إنّ الذي يمتلئ به جسمك

المنفوخ هذا خلٌّ لا دم، وربّ الخلق إذا مسّها ضرٌّ لأدخلن السجن فيك ولا يصدّني أحد عنك».. وخنقه وكاد يقتله يا أخت... وفوزي والله مظلوم؛ هي عين رئيسة التي أرقدتني هكذا!

مرّت الأيّام سريعة والشأف يكبر بقدم سيّدة، حتى إنّ الوقت لم يمهل أخويها كي ينسياها مرميّة في حجرتها كما أخبرت الجميع لاحقًا. وجاء يوم عَصَف الألم فيه بجسدها، حتى نادى صراخها جميع من في البيت، فحملها سالم في عربة أخيها خامل، وطار بها إلى المستشفى، لكنّ الأوان قد فات.. أنتم أغبياء ومتخلّفون، كيف تتركون قدمها على تلك الحالة.. تخيّلناه جرحًا بسيطًا يا طبيب، ولم أر قدمها بهذا الشكل إلّا اليوم. لم يصبر الطبيب حتى يسمع تبريرات سالم، وأمر بحمل سيّدة التي كانت قد غابت عن الوعي تمامًا إلى غرفة الفحص، وهناك استغرقه أخذ عيّنات من دمها للتحليل فترة طويلة حتى يعرف النتيجة... أأنت زوجها؟.. لا أنا أخوها وهذه أمّها وتلك زوجتي.. وأين زوجها؟... في العمل ولم نخبره بعد أنّنا في المستشفى، خير يا دكتور؟... مريضة بالسكّري وحامل، والجرح في قدمها لم يعد له حلٌّ غير البتر، لا بدّ أن يوقّع زوجها أو أنت حالاً على إجراء العمليّة، الوقت في غير صالحها على الإطلاق!

قُلْ لنا، يا لَهَبَ الحاضِرِ، ماذا سنقولُ؟

ـ ليس هناك من يسمعني غير نفسي يا فتحي!

ـ ألهذا اخترتني؟

ـ لا يثني أحد على الحكايات التي أحكيها!

ـ إذن فلتثنِ الوحدة عليك!

ـ . . . !

ـ لقد جئت بي وها أنا أسمعك!

ـ قل لي إذن، ما رأيك فيما استمعت إليه من حكايات؟

ـ لطيفة!

ـ بل هي خلّابة!

ـ أَجئت بي لأثني على حكاياتك!

ـ لا . . ستثني هي على حكاياتي!

ـ من؟

ـ جنِّيَّة الأحلام!

ـ وأين هي؟

ـ ستولد يومًا ما!

ـ فلتجئ بها كما جئت بي وترح نفسك.

ـ لا زلت لا أعرف كيف . . ولهذا جئت بك!

ـ وهل أنا الذي سألد الجنِّيَّة؟

ـ لا . . ستلدها الصدفة، بل السماء الحزينة!

ـ ما فائدتي إذن؟

ـ كادت الحكايات تتوه منّي، كادت تنسيني جنِّيَّة الأحلام، أنت تسمع منّي وتردّ عليّ . . بك أسير على الطّريق!

ـ كيف تنتظر الصدفة، وأنت تريد أن تخطّط الطريق؟

ـ لقد بدأت الحكايات من درب العبث . . . قل لي أين الشابّ الذي يحترق بالشهوة والحرّ، فيتمنّى الجنِّيَّة لترطّب عليه روحه؟

ـ . . . !

ـ يا فتحي أنت فقط تراقبني وتساعدني!

ـ . . . !

ـ ياه! لو أنّ هناك من يؤنسني لكنت أبهرته بحكاية تلو الأخرى حتى تجيء تلك الحكاية التي تلد فيها السماء جنِّيَّة الأحلام.

ـ لو أنّ هناك من يثني عليك، لكنت أبهرته، فأنستك رغبة الإبهار جنِّيَّة الأحلام.

ـ لو أنّ جنِّيَّة الأحلام هنا، ما كنت أسعى لأبهرها، وإن جاءت لن أسعى لذلك، بل هي التي ستبهرني.

ـ وما الذي ستفعله الجنِّيَّة إذ جاءت؟

ـ ستؤنس وحدتي!

ـ ألا يكفيك كلّ هؤلاء الذين تحكي عنهم، وأنا، ليؤنسوك!

ـ لو كان بكم من أمركم حيلة لكنتم أنستموني، ولكنّي أحرّككم لما أريد!

ـ وكيف لا تخشى أن أضلّلك، أو أحيد بك عن هدفك من خلق الجنِّيَّة؟

ـ أنت لست إلّا صوتًا منسيًّا من أصواتي يا فتحي! كما أنّني كرّرت لك أكثر من مرّة: «لن أخلق الجنِّيَّة»، ثم إنّك لم تصغ جيّدًا لما حكيت! سيتمنّاها أحدهم ثم ستلدها السماء الحزينة!

ـ وهل ينفي ذلك خلقك لها أو أنّها أحد أصواتك؟

ـ سأقول إنّها متمرّدة، إنّها ندّ لي، سأتركها لتفعل بي ما تشاء!

ـ إذن، فهي لن تثني على حكاياتك!

الميلاد ــ العودة

ـ سمّيته «صَالِحْ». . صَالِحْ يا أخي، وقبّل اليد التي مدّت إليك.

* * *

مات عمّهما الأحنّ موسى، فركبا البحر عائدين إلى البلدة القديمة، لم يجلسا في أيّ من البيوت في انتظار الجثّة؛ ثم تغسيلها وتجهيزها للدفن، واكتفيا بالوقوف قبالة الترعة في مواجهة بيت الجدّ الكبير، وكذلك وقف عمّهم عبد الصمد، متجنّبين متجانبين، فلا ينظر أحدهما في عين الآخر.

كان مخطّطًا لخامل أن يصالح عمّه في ذلك اليوم، لم يكن تخطيطًا منبثقًا عن اجتماعات أو ترتيبات بأيّ شكل من الأشكال، أو حتى إبداء لنوايا سابقة، بل هو تواطؤ لحظي استقرّ في جميع الأنفس، فور أن رأوا العمّ وابن أخيه في هذه الحالة وفي مناسبة

كتلك. . أكثرهم حنينًا للصلح كان سالم، فبالرّغم من إحساسه الدائم بالارتباك تجاه مشاعره، إلّا أنّ ذلك التواطؤ الجمعي قاده بشكل غريب نحو إبرام ذلك الصلح!

البلدة القديمة لم تكن بالنسبة إليه مجرّد سنوات قليلة من اليتم بين البيوت، إنّها أبوه الذي لم يدركه؛ فقد بطّنهُ إحساس الفقد بظمأ لا يرويه أب واحد ولا كلّ الآباء مجتمعين، وظلّ سنوات طوال يبحث عن معنى الأب في كلّ شيء حوله، حتى انتزعه اليقين من إحساسه المرتبك بأنّ أباه هو حنان الدنيا وقسوتها مجتمعين، فانبلج إحساسه بأمّه على أنّها أبوه، فهي رغم حنانها تظهر قسوتها في تبجيلها أخيه في معظم الأحيان دونه، رغم شناعة بعض تصرّفات الأوّل، وأخوه إذا قسى عليه هو حنون لكن كبرياء الأبوّة تمنعه من إظهار حنانه، كذلك فإنّ تلك البلدة البعيدة قرب البحر ببيوتها وضواحيها التي سقته اليتم وهو صغير هي أبوه، وعمّه القاسي لا بدّ أن يكون حنونًا لأنّه أبوه، أمّا عمّه الذي مات، فلم يدرك منه غير سيرة حنانه وعطفه. وبالطبع، ذلك يعني أنّه ليس أباه، وإذا جاءت الفرصة من جديد لإحياء العودة للبلد والعمّ عبد الصمد فلِمَ يرفسها؟

عاد مع خامل إلى بيتهم والفكرة تمور بصدره، كانت الفرصة عند التُرب سانحة لطيّ الزعل القديم، لكن أخاه زمجر للصلح، أخذ العزاء فوق فساقي الميتين وانصرف. صحيح أنّه قد صافح عمّه، إلّا أنّها كانت مصافحة باردة دحر بها فرص الوقوع في العيب والغلط، وكفى، لكن سالم لم يكتفِ فأضمر الفكرة في

داخله. لم يحاول حتى إعادة النقاش في الصلح مع خامل أو مع أمّه، حتى وضعت زوجته إكرام مولودهما الأوّل، فحمله لحمة حمراء ورفعها إلى أخيه ـ وكان يعرف حبّه لخلفة الولد ـ. . سأسمّيه «صَالِحْ». . صَالِحْ يا أخي وقبِّل اليد التي مدّت إليك.

. . . ربّنا يسهّل.

* * *

انفتحت شركة الإسمنت على خيرها، وكلّ ما يحتاجه خامل مكانًا فسيحًا يؤسّسه مخزنًا ومتجرًا لبيع إسمنت التسليح؛ ليس أيّ مكان والسلام. فلإنجاح مشروع كهذا هو في احتياج لسوق بكر، وجناين الجوّافة القديمة حيث يعيش، اختصر الزمان اسمها إلى «الجنانين» فقط، بعد أن اختفت فيها الجوّافة وسيطر الإسمنت والحديد المسلّح على معمارها، لذا فهي لن تكون تلك السوق المرجوّة؛ القرية البعيدة قرب البحر هي الأنسب من كلّ النواحي، قربها من شركة الإسمنت ميزة لا ريب فيها، وبالرّغم من أنّها القرية الوحيدة في البلاد التي تطلّ على البحر ولا يزال أهلها يمارسون الفلاحة، فإنّ عيون رجالها تراقب الثورة الجديدة التي عمّت قرى البحر الأخرى.

لكن كيف يعود إلى بلده بعد الذي كان؟

كان خامل شخص «متيور»؛ ترى أموره فتجده قد باع الدنيا وبخس في ثمنها؛ مهزارًا كأنّه لا يعرف الجدّ، وتسمع سيرته فتُبهَت من جِدّه وجِدّيّته في شراء الدنيا بالغالي والنفيس، تركيبة من النوم والنشاط، طويل البال وسريع الغضب، وإذا سألتني: يا فتحي، لماذا رغم ذلك هو ألثغ في الحرف الأوّل من اسمه فيصير ينطقه خامل بدلاً من كامل، أقول لك بكلّ بساطة، إنّه وُلد هكذا حتى تطمئنّ إليه «رئيسة» عندما يذهب لخطبتها فلا تتطيّر منه وترضاه زوجًا لها، لكنّ الأهمّ من سؤالك ذلك، هو ما يدور الآن في ذهن ذلك الكهل ذي العيون الزرقاء، كيف يعود إلى بلدته البعيدة قرب البحر من جديد؟ إذا كان وحيدًا في تلك الدنيا لصار الأمر أهون عليه من قضاء حاجته، ولعاد للبلد بكلّ بساطة واشترى أرضًا وأقام عليها متجرًا للإسمنت، بل وعيَّن عمّه عبد الصمد خفيرًا وبائعًا في المتجر، لكن كيف سيواجه أمّه وأخوته بمخطّط الرجوع بعد الذي كان؟ بالطبع سيعيدون عليه، بعد كلّ ذلك الزمن، السؤال من جديد: أضيّع أموال الرجل أم سرقها؟ ذلك السؤال الذي أجّلته كارثة طرده / هروبه من البلد سنين طويلة. أعتقد أنّه بالفعل لم يعد يتذكّر ماذا حدث لذلك المال، ولم يعد يريد أن يتذكّر، مجرّد ورود الفكرة بخاطره تقذف بقلبه إلى حلقه وتُسيّر عليه بطنه، حتى رئيسة زوجته وإن كانت لم تسأله عن الماضي لكنّها تعرف الحكاية، وذلك يصعّب عليه الأمر أيضًا، لذا فإنّ صداقته بعبد السميع مصطفى كانت الأنسب إليه في تلك الظروف، ليس فقط ليسرد عليه القصّة ويسأله الحلّ، إنّه أصلاً لم يسرد عليه القصّة كما كانت، ولم يسردها بأيّ من الطرق

الملتوية التي ستبتعد به عن حادث المال والهروب!

لقد عرف عبد السميع سائقًا في شركة الإسمنت، ثم تطوّرت العلاقة فيما بينهما بعد ذلك، فأصبحا يتبادلان الزيارات المنزليّة، ويلتقيان في المقاهي المختلفة، ولمّا انفتحت شركة الإسمنت على خيرها، أكّد له خامل أنّها الفرصة التي طالما حلم بها، وأنّه شرع بالفعل في شراء قطعة أرض في قريته المجاورة لمصنع الإسمنت، وتشاركا سويًّا في التفكير والتخطيط لبناء متجر الإسمنت عليها، وفي كلّ حديث لهما بعد ذلك كان خامل يزفّ إليه خبرًا جديدًا عن مشروعه، مرّة أنّه توصّل من خلال علاقاته بمديري الشركة أن يسمحوا له بحصّة لا بأس بها لبدء مشروعه؛ وأخرى، أنّه وجد قطعة أرض أفضل من تلك التي اشتراها، لذا سيبيع قطعته ويشتريها؛ وثالثة، أخبره أنّه اشترى قطعة الأرض الجديدة فعلاً بعد أن باع القديمة، حتى إنّ خامل أخذ عبد السميع وذهبا في أحد الأيّام لشراء الطوب الأحمر اللازم لبناء المتجر ودفعا عربونًا بالفعل لصاحب الطوب، لكن خامل ذهب لبائع الطوب في اليوم التالي وألغى عمليّة البيع متعلّلاً ببعض المشاكل مع الحكومة التي تحظّر البناء على الأرض الزراعيّة. . يا لها من فكرة! الحكومة تحظّر البناء على الأرض الزراعيّة، شوف يا عبد السميع ماذا جرى لي! البناء سيتأخّر لأنّ الحكومة عيونها مفتوحة الآن وتضيّق الخناق بشدّة على كلّ من يحاول البناء على الأراضي الزراعيّة. ولمّا كان عبد السميع ينصحه. . خلاص بيع الأرض واشتر في منطقة أخرى. . كان يخبره عن أمله في أن تشقّ الحكومة في بلده ـ حيث تقع الأرض ـ طرقًا جديدة، ساعتها يصير يكيل ثمن

الأرض بمثقال الذهب، بينما هو الآن إذا باعها سيخسر الجلد والسقط، لأنّ سعر الأرض في النازل.. مثلما قلت لك الحكومة فاتحة عيونها على البناء، ولو بعت سأبيع الأرض - زراعي لا مباني، وساعتها سعرها سيكون في التراب.

على النقيض، رأت رئيسةُ عبدَ السميع، ومع الوقت كرهته، بل تقزّزت منه، لم تكن تراه غير ديّوث بقرنين، هاجس استقرّ في مكامنها بأنّ خامل يعرفه فقط من أجلِ زوجته، لا لشيء آخر، وللحقّ كان هناك العديد من الرغبات الحميمة الدائرة بصدر خامل تجاه زوجة عبد السميع، لكنّ الأمر بالنسبة إلى خامل لم يكن كما توقّعت رئيسة، لقد مثّل عبد السميع وزوجته فضاءً بل ملجأً أكثر رحابة من عيشته في بيته. هناك كان يشعر بالحرّيّة الشديدة في نسج خيوط حكاياته حول الحياة التي تمنّى عيشها، أو في رأيه، الحياة التي يستحقّ أن يعيشها، بينما في بيته كانت لديه في قرارة نفسه هواجسه الخاصّة حول عار قديم يدنّس سيرته، وأنّ هزاره وهزله الكثيرين عنوان شخصيّته والمحبّبَيْن إلى قلبه قد حوّلاه لشخص هُزء دون شخصيّة قويّة، أمّا عن زوجة عبد السميع فقد كان له فيها رأي سديد، كان يرى أنّه محبّ للجمال، ولا يطعن ذلك في ولائه لزوجته، فقط كان يحبّ رطرطة اللحم فوق جسد زوجة عبد السميع البدينة، ورطرطة الحديث معها، عشمها الزائد في الأخذ والردّ عليه كان يدغدغ نفسه ويزيده انبساطًا في مجلسه.

الزيارات شبه اليوميّة إلى بيت عبد السميع كانت تؤرق رئيسة

وتنغّص عليها عيشتها، ولم تكن تلك هي المرّة الأولى التي تشعر فيها بأنّ زوجها على علاقة بنساء أخريات، بل إنّ الأمر يعود لأوقات بعِيدة قبل ذلك، منذ ساءت علاقتهما السريريّة سويًّا في بداية حياتهما الزوجيّة، ثم انقطعت دورتها الشهريّة في سنّ الخامسة والثلاثين كنتيجة لاستئصال رحمها بسبب مرض قديم، حتى إنّها كانت تفسّر مداعبات زوجها إذا صفعها على عجيزتها بينما هي تنجز أيٍّ من الأعمال المنزليّة ليس إلّا سلسالاً لتصرّفاته الصبيانيّة الهوجاء، خاصّة أنّه كان يتعمّد فعل ذلك أمام أمّه أو أبنائه دون اكتراث، لذا فإنّ الزيارات شبه اليوميّة إلى بيت عبد السميع لم تكن تحمل أيّ معنى آخر بالنسبة إليها غير أنّ خامل على علاقة بزوجته، وما زاد غضبها ودمّر قدرتها على احتمال تلك العلاقة، ما حدث يوم أن علموا بخبر موت «موسى» عمّ خامل.

جاء المرسالِ من البلدة البعيدة فور وفاة العمّ الطيّب، فأمسك به جابر أسيرًا لواجب الضيافة حتى يعود أخوه من مشواره، فيذهب الثلاثة عائدين إلى البلد ليحضروا الدفن ويعزّوا. ولمّا مرّ الوقت دون عودة خامل، وعندما لم يستدلّ أحد على مكانه، همست رئيسة في أذن ابنها راغب، فهرول جريًا إلى بيت عبد السميع فوجد أباه عنده، وأخبره ما كان من أمر وفاة عمّه والمرسال الذي ينتظره في البيت.

* * *

هواء البلدة القديمة الملبّد برائحة الطين وروث المواشي؛ رياح الشوق والأحلام في صدر خامل، حتى إنّه وقبل الوصول لبيت الجدّ حيث يمثل جسد عمّه، عاين بنظره كلّ الأراضي - الفضاء التي تناسب مشروعه، تاركًا خيوط أفكاره لنسج أحلام المستقبل الرغد من جديد. لكنّه وفورَ أن وقف أمام بيت جدّه، ولمح نوايا الصلح وبوادره في أعين الجميع، عاد قلبه للقفز في حلقه وسالت معدته، وصار حلمه همًّا ثقيلاً فوق رأسه، ودّ معه لو قفز به إلى الرشاح، وذهب به وبنفسه إلى غياهب النسيان، فوقف قلقًا متوجّسًا بقلب متسارع الدقّات، يريد أن يقتلع جذريه في أقرب وقت من أمام بيت الجدّ إلى المدافن ومنها فورًا إلى بيته في الجناين، وعندما تحرّك ركب الميت تعمّد التلكّؤ حتى صار في آخره، لدرجة أنّ أخاه الأصغر ملّ منه وفارقه متقدّمًا ليشارك في حمل النعش، وبعد أن وصلوا المدافن ثم دفنوا العمّ الطيّب،

وبينما وقف الناس مصطفّين معزّين، أمسك بيد سالم ومقصده البحر، فاعترضته عين عمّه عبد الصمد بمحجريها الجامدين، فدقّت العينان قلبه دقّة طويلة قويّة أسقطته إلى معدته، لم يدر معها إلّا وهو يمدّ يده إلى عمّه فيعزّيه، وبالقلق والتوتّر نفسه استكمل طريقه آخذًا أخاه ـ أخيرًا ـ إلى البحر عائدين إلى البيت.

وفي البيت، وقلبه قلق بعد لم يهدأ، استفردت نظرات رئيسة الساخطة به وحيدًا في غرفتهما، وكان يعلم زوجته تمام العلم، فيعرف كلّ شكوكها تجاهه وزوجة عبد السميع، كما يعرف أنّها تعاف الجنس وأنّها لن تجاري مطلقًا كلّ أحلامه الحميمة المتهوّرة، ولو كانت كذلك لحيّدت كلّ خلافاتهما سويًّا وأطفأت توتّره وقلقه بين حضنها وفخذيها تمامًا كما تفعل كلّ النساء الطيّبات ـ من وجهة نظره ـ مع أزواجهنّ في حالات كتلك، لكن ذلك لن يحدث الآن! ورغم ذلك هو يقدّرها ويضعها في مرتبة عليا من حياته، لأنّه يعرفها تمام المعرفة، ويوقن أنّها تفعل وستفعل المستحيل لتحوط عائلتها وتحميها من الفشل، لذلك لم يجد بدًّا لصرف نظراتها الساخطة عنه غير أن يخبرها بأحلامه عن بناء متجر الإسمنت وكلّ المشاكل التي تعوقه عن المضيّ في تحقيقها، ضاربًا في تهوّر كلّ مخاوفه من أسئلة الماضي القديم وملقيًا بها في حِجْرِ رئيسة، لكنّ القدر كان أكثر رحمة به هذه المرّة، فبعد أن ألقى كلّ ما في جوفه من كلام عن الأحلام، وقبل أن تبدأ رئيسة في مناقشته واستقصاء شرور الماضي للوقوف على حلّ للمستقبل، دقّ بابهما في خبط رقيق. . . «يا خامل قم ألحق مرات أخوك بتولد».

* * *

كان عليها أن تفتح معه ـ مجدّدًا ـ الحوار حول مكان ولادتها، هي تجربتها الأولى في الوضع، ومن حقّها أن تجد أمّها بجوارها في حال كتلك، ولكنّها كعادتها أساءت اختيار التوقيت، الرجل لم ينفض تراب المدافن من فوق ملابسه بعد، ولكنّها تخاف أن تلد في أيّ لحظة وتعلم أنّ سالم يرفض أن تلد في بيت أمّها، إنّه يرفض أن تلد في أيّ بيت بالأساس؛ ستلد بالمستشفى. . . المستشفى بعيد يا سالم اسمها «المستعصية»، لأنّه يُستعصى على الناس الذهاب إليها! طيّب ألد بالمستشفى ثم أذهب إلى بيت أمّي. . لم؟ بالبيت جيش جرّار من النساء سيقفون فوق رأسك ويلبّون كلّ طلباتك. . . لن أكون مرتاحة. . كيف؟. . . . أمّي ستتحمّلني. . . وأمّي لن تتحمّلك إذن؟. . . لا لم أقل ذلك، ولكنّي سأكون متعبة، وكلّ امرأة بالبيت لها شؤونها. لن يتمّ الاعتناء بي كما تتصوّر. . صدّقني! خذ عندك

مثلاً: أنا لا أحبّ شوربة الدجاج أشعر بالقرف تجاهها وسأشربها هنا بالغصب... يا ستّي سأحرّج عليهم شوربة الدجاج، أقول لأختك هند تأتي لتبيت معك وترى أمورك، ولا تخافي من بُعد المستشفى، ستذهبين بالسيّارة وتعودين بالسيّارة..!

* * *

كلّ شيء قريب يا فتحي. الموت والحياة. المقبرة والقابلة. الرحيل والعودة... يا خامل قم الْحق مرات أخوك بتولد. يا سالم ابنك جميل عيونه واسعة، لكنّه «عجوة» خالصة أخذ لون أمّه وملامحها ليس فيه منّا غير جبهة رأسه.. لكن وجهه مدوّر مثلي... آه ووجهه مدوّر مثلك... سأسمّيه «صَالِحْ»، صَالِحْ يا أخي وقبّل اليد التي مدّت إليك.. ربّنا يسهّل! المهمّ هل ستبيت زوجتك بالمستشفى أم ستعود اليوم إلى المنزل؟... ستعود اليوم إن شاء الله، كانت تريد أن تلد عند أمّها أو حتى تعود إلى بيت أبيها حتى يمرّ أسبوعها الأوّل.. وبيتنا ماله؟ والنسوان اللائي بالبيت أين ذهبن... قلت لها ذلك، ثم إنّ أختها هند ستأتي لتبيت معها حتى السبوع.. هند! أتعرف يا سالم لولا الملامة كنت ناسبت عمّك هيكل وأخذت منه هذه الهند الجميلة... يا عمّ خامل هند تكبر راغب ابنك بسنوات قليلة... اسكت أنت لا

تعرف شيئًا عن النساء! المهمّ همّ شوف الطبيب حتى نعود إلى البيت بابنك وزوجتك... حاضر! عقبى لما نعود إلى البيت الكبير بالبلد!

* * *

كلّ شيء قريب. . الموت والحياة. المقبرة والقابلة. كذلك العودة والرحيل. . وسالم مُلَهْوَج يا فتحي، لا يصبر على شيء وضعه في رأسه، وصدّقني الحياة تعرف كَوَامِن كلّ نفس فينا، وهي طيّبة تحبّ المساعدة، لكنّها تخشى العجلة، فالطيّب حين تتعجّله كالدب إذ قتل صاحبه لينقذه، ولكنّ الحياة أكثر حذقًا من ذلك الدب تضرب حتى لا تقتل، وتقتل حتى تلد، وأنت يا سالم قم إذن من نومك، قم بعد أوّل ليلة يبيت فيها وليدك بحضنك وحضن أمّه. . . قم إلْحق نسيبك! . . عمّ هيكل! ماله؟ . . إنّه مرزوق! . . . ماله مرزوق! . . هند أخته صفعت سليمان العطيفي بالمداس على وجهه وفرّت إلى بيتهم؟! . . . متى؟ لِمَ؟ ماذا جرى يا أمّي؟ . . . عاكسها، أثناء نزولها من بيتنا! . . . النطع ابن الكلب! . . المهمّ. . اجرِ. إلحق. . مرزوق، شدّ السكّين وذهب ليقتل سليمان!

* * *

بين ساعة من الماضي البعيد بكت فيها ودعت عليه، وأخرى من الحاضر الآني بكت أمامه وشكرت صنيع ودّه، عجنت المآسي نفس مسعدة، أمام عبد الصمد، عجينًا من غير خبيز ونضج. فقلب الأمّ إذا نضج مات! وعينها كذلك إذا جفّ ماؤها كَفَّت، ومسعدة إذا أبكاها الزمن قالت.. عيني عليك يا ابني، كنت انشكّيت في لساني ولا قلت لك! يحرق مرزوق وأبو مرزوق واللي جابوا مرزوق. فلتهدئي قليلاً يا أمّ كامل!.. ما دخلك أنت؟ وما الذي جاء بك في الأصل إلى هنا؟ نرمي لحمنا إذًا يا ستّ إخلاص... كيف نترككم في حال كهذه؟

لحمك أكلته منذ زمن يا عبد الصمد، ولم يبق منه شيء لتلقيه أو لتلمّه؟.. أغلقي فمك يا جاحدة، حقّك عندي يا عمّ، إخلاص لسانها زفر؛ تعرفه؛ وإنّها لخائفة من أجلي فقط ولا تقصد!.. تقصد أو لا تقصد يا جابر، ها هي ترى آخر القطيعة،

وما نابكم منها، أخوك في الحبس وأنت مرميّ على سرير مقطّعة يداك!.. قطيعة تأكلك وتأكل سلسال نبتك، ويد مقطوعة تلفّ حول رقبتك، قادر يا كريم!.. كُتم فوك يا ابنة أموات الكلاب.. حقّك عليّ يا خويا، ليس لنا غيرك، أكلنا الناس لوحدتنا، وأنت عمرك بطوله عزوة لنا وسند وستبقى كذلك.. لا حقّ ولا غيره يا مسعدة، هي لها زوج واسمها أصبح منه ولا تخصّني في شيء، ما جئت إلّا لابن أخي.. حقّك عليَّ يا عمّ وتسلم لي.

... حتى الآن لا أفهم ما الذي حدث وكيف صرت إلى هنا وأخوك بالحجز، لم أفهم شيئًا من أولاد أخوالك وعمومتك، قل لي ماذا حدث؟

... كنت نائمًا بالبيت، صحوت على صريخ أمّي تخبرني أنّ العطايفة تحرّشوا بهند أخت زوجتي، وأنّ أخاها الأكبر مرزوق يمسك بتلابيب أحدهم وينوي قتله، فهرولت لإنقاذ نسيبي وإيقاف كارثة على وشك الوقوع، مرزوق أهوج يسبق غضبه نَفَسهُ، وعندما وصلت إلى الخناقة وجدتها كأنّها يوم الزحام، لم أرَ مرزوق في البداية، وكان المتناحرون كلّهم مدجّجين بالسكاكين والشوَم، ثم بصرت أخي كامل يفصل بين اثنين، فهرولت إليه، فإذا به يفصل بين مرزوق وسليمان ابن العطايفة، لا بل كان يحول بين مرزوق وبين قتله العطيفي، فدفع مرزوق خامل واستلّ سيفًا وهوى به على بطن سليمان، فما كان منّي إلّا أن مددت ذراعي لأحوشه، فتلقّى ساعدي الضربة وغبت عن الوعي، وعندما أفقت وجدت نفسي كما تراني الآن.

... هذا الذي نابكم من الغربة، يا جذور مقلوعة! لو كنتم في البلد ما استجرأ عليكم مخلوق، لكنّ الأمر للخالق، وكلّ شيء لا بدّ أن يتغيّر، ولا بدّ أن تعود الأمور لسابقها، سأذهب لأخيك بالحبس كي أرى مع أولاد عمّك سبيلاً لإخراجه، وسأبعث بابن عمّك رضوان ليجلس بجانبك ويقضي حاجاتكم، والخير يسيّره القدر، آمين!

الخير يسيّره القدر يا فتحي، آمين! لكن قل لي هل بكيت مع مسعدة؟ إذا بكيت فأنا لم أبك، لا تقل إنّي ميّت القلب، بل لي قلب، كلّ ذلك يحدث لأنّ لي قلبًا، وقد خبّأت لك جزءًا في الحكاية حتى نبكي سويًّا عليه. ليست رواية سالم بلسانه مدعاة للبكاء، فالشخص حين يحكي مأساته يحكيها لأنّه يريد الآخرين أن يبكوا حاله، لذا فإنّهم لا يبكون حتى وإن مصمصوا الشفاه وذرفوا الدموع، بينما حين يحكيها هو أو غيره للتندّر بما حدث، نبكي فعلاً يا فتحي، حتى وإن كنّا نضحك... اسمع الحكاية من باقية، حين سألها يحيى زوج ابنتها، ماذا جرى يا خالة؟ دخل سالم عليَّ.. وهو يا ولداه مغلوب على أمره؛ ليس له في العراك، لكنّه دخل كالقطار، ناديته لم يجب، إلى المطبخ ذهب، ثم خرج لي بسكّين خضار؛ الخلق كلّهم بالخارج يحملون السيوف والسنج والعصيّ، فيخرج لهم هو يحمل سكّين الخضار، ليته كان سكّين اللحم! لكن ماذا أقول هو معذور رغم ذلك؛ قلت الخلق كلّهم بالخارج بالسيوف والسنج، يعني أَيُشاهد مرزوق يُضرب هذا وذاك وهو يقف «محلّك سرّ»، أخذ السكّين وخرج.

كنت خائفة وأمكث بالبيت، والنسوان كلّهنّ ببيت خامل يشاهدن العراك الدائر أمام منزلهم من الشرفات، وأنا هنا كالكفيفة أسمع ولا أرى، وقلبي ينفطر. صحيح أنّني لم أخرج خلف ابني وزوجي، لكن منظر سالم بسكّين الخضار أرعبني، هرولت حافية القدمين خلفه، والخلق كلّهم يُضربون والدماء تسيل كسرسوب ماء على الأرض، والله مثل صنبور يسيل منه سرسوب دم، انخلع قلبي، وكأنّي غشيت للحظة، لم أرَ سالم بعدها، فصرت أصرخ وألطم وجهي، وطال سرسوب الدم قدميَّ، وأنا مستمرّة في الصراخ؛ دقائق لا أعرف كانت أم ساعات! وهبط العسكر ولمَّ الجميع؛ ثم جرى ما جرى؛ مرزوق ـ إلٰهي يموت ـ ملقى بالحبس وكان معه خامل قبل أن يطلقوا سراحه، وسالم يا والدة كادت يده تنقطع لولا الستر، ليس له في العراك، فيخرج بسكّين الخضار! قالوا بعد ذلك بأنّ مرزوق ـ إلٰهي أطلع عليه بكرة ـ هو الذي ضربه، ليت سالم الذي مزّق مرزوق، لقلت ساعتها: غشيم ليس له بالعراك وجاءت في أخ له ـ مرزوق ـ ولم تأتِ في الغريب، ولم أكن لأحزن مثل حزني الآن.

يا سلام! لم تكن لتحزني على مرزوق يا أمّ مرزوق، وكنت ستمرّرين لسالم ـ أيضًا ـ فعلته بابنك؟!

وخالق الخلق كنت لأفعل يا يحيى، على الأقلّ لتبدّلت أماكنهما الآن، ولكان سالم بالحبس؛ وهو طيّب لن يمكث به كثيرًا، وما هو إلّا وقت قليل وسيتركونه لحال سبيله عندما يكتشفون أنّه غلبان، تمامًا مثل أخيه خامل الذي خرج، ولكان

مرزوق بالمستشفى، وهذا ابن عفريت سيخرج منها كما كان وأفضل! لكن أتعتقد أنّهم سيتركونه لحال سبيله؟ قليلٌ إذا حبسوه مدى عمره! نحن لسنا عزوة هنا، هو الباقي بعد أبيه.. حتى لو حبسوا سالم؛ سالم له عزوة «يحاجوا» عليه، بعدما انتهت المعركة جاء أهله كالتتر يسألون عنه! وأوّل شيء فعله خامل بعد خروجه من الحبس هو أن ذهب لعزوته يحتمي بهم! ونحن من يسأل علينا؟!

ربّة الأحلام المتوّجة

جوال بصل وآخر أوراق العنب، وبينهما يجلس صالح ذو الأعوام الخمسة، يحضنهما كأخوين وينظر إلى الطريق المرصوف متعجّبًا، لماذا يسير الناس بأرجلهم والسيّارات بإطاراتها على الأرض، بينما يسير هو بواسطة رأسه على السماء وعلى الأسقف!... ولد يا صالح، لا «تشعلق» رأسك بالسماء فتسقط من العربة!.. وكيف أسير إذن يا عمّ خامل!.. يابْنِ الكلب لو وقعت ستموت! لا تسند ظهرك على حافّة الصندوق فينفتح وتقع زرع بصل!

للمرّة الثالثة ـ في طريقهما عائدين إلى البيت ـ يوقف خامل سائق السيّارة، كي يقنع صالح بترك صندوق العربة النصف نقل والجلوس معه بالكابينة، إلّا أنّه يبكي مثلما فعل في المرّتين السابقتين، فيضطر خامل للجلوس برفقة ابن أخيه الصغير.. تعال اقعد على حجري!.. أنت تسند ظهرك إلى حافّة الصندوق مثلما

كنت أفعل يا عمّ!.. لا تخف أنا كبير وأستطيع أن أضبط نفسي، قل لي لم تعلّق رأسك إلى السماء؟.. أنا أسير عليها!... وكيف تسير عليها؟... أرخِ رأسك للخلف وانظر إلى السماء وبحلِقْ!.. ثم؟.. انتظر قليلاً!...

كانت تلك هي المرّة الأولى لخامل، منذ سنين طفولته الأولى، التي ينظر فيها إلى السماء بتلك الطريقة، وهي مرّته الأولى كذلك التي شعر فيها بأنّ هناك من ينظر إليه من بين تلك الغيمات، وأنّ ذلك/ تلك الذي/ التي هناك قادر/ة على مساعدته للخلاص من عذابه!

كلّ العقاقير والوصفات المنوّمة لم تكن ذات نفع في تخليصه من جحيم اضطراب النوم الذي أصابه منذ مدّة، فقد كان يقضي ليالي الوصفات واستحلاب العقاقير مراقبًا نفسه الأمّارة بالنوم فلا ينام!

في الحقيقة، لم يكن يعاني خامل الأرق بشكل كامل، فلقد كان يخلد إلى النوم فعلاً إذا وضع رأسه على الوسادة، لكنّه كان ينام كمن ينام عاريًا على صخرة ملساء، فبين كلّ تقليبة على جنبيه يقظة، وبعد كلّ يقظة غفوة يتخلّلها كابوس أو حلم غائم. ولكثرة مهاجمة تلك النوبات له، لم يعد قادرًا أن يحدّد إن كان ذلك عرضًا طارئًا، أم أنّه قد أُصيب من قبل بذلك الداء في سنوات عمره الأولى أو الوسطى.

أذبل السهاد جسده، فصار قريب الشبه بالعكّاز، لكنّه ـ إشفاقًا ـ أنمى (السهاد) أسفل مقلتيه خطّين أسودين ليقيهما شرّ

السقوط من وجهه، ولجهلهما، فسّرت أمّه الخطّين بسوء التغذية ضاربة بذلك سبيلاً جديدًا للتنكيل برئيسة زوجته، بينما فسّرت الأخيرة الأمر على أنّه دليل دامغ على انهماك زوجها في خيانتها.

زميله بالعمل إبراهيم الهادي، هو الوحيد الذي فهم الأمر كما ينبغي.. ما الذي يؤرّق نومك يا خامل!... كأنّ السرير بل أسرّة البيت كلّه يا إبراهيم من الصخر وكأنّ جنبيّ من الحطب، أتقلّب على السرير كما الحطب يتساقط على الصخر؛ فأستيقظ، وإذا عاد السرير إلى قطنه وقماشه، وعاد جنبيَّ إلى لحمهما وعظمهما، لاعبت عقلي الأخيلة والأحلام، فأصير جسدًا ميتًا برأس مستيقظ، وكأنّي دلقت في جوفي كنكة حشيش!... إنّ ربّة الأحلام غير راضية عنك يا خامل... من؟.. ربّة الأحلام؛ مانحة الأحلام السعيدة، طريق النوم الرحيم.. لكنّي لا أريد أن أحلم، كلّ ما أريده هو أن أنام وبدون أيّة أحلام... عليك أن تطلب ودّها أوّلاً حتى تمنحك النوم.. أتهزأ بي وتخاطبني بالألغاز! كنت أظنّك فهمتني.. وأنا كنت أظنّك حالمًا: الحكاية بسيطة كلّ ما في الأمر أنّ رأسك مليء بالأفكار كبالون هائم في الفضاء وغير مستقرّ، اسمع كلامي يهدِك إلى الشفاء: كلّ ليلة وقبل أن تنام، اكتب خطابًا تفصّل فيه كلّ أحداث يومك، ثم ضعه أسفل رأسك، وستنام... بسيطة سأفعل ذلك!

اقتناع خامل بوصفة صديقه، لم يأتِ لكونه غريقًا يبحث عن قشّة وسط المحيط، ولكن خامل كان يؤمن بكلّ كلمة تخرج من فم إبراهيم رغم سخرية زملائه جميعهم منه، والذين جرّدوه من

لقبه وأبدلوه لقبًا آخر هو «إبراهيم مطالعة»، ثم اختصره الوقت إلى «مطالعة» قبل أن يتحوّر إلى أمّ طلعت، وعندما ترفّق الزمن به صار اسمه طلعت فقط، وذلك لأنّ إبراهيم كان دائم التعلّق بالكتب والقراءة، وهو السبب ذاته الذي جعل لكلّ كلمة تخرج من فمه بمثابة حقيقة محضة بالنسبة لخامل؛ حتى وإن شارك زملاءه السخرية منه أحيانًا، وفي الليلة ذاتها التي أخبره إبراهيم بالوصفة، عمد خامل إلى ورقة وقلم، وكتب كلّ ما حدث له في ذلك اليوم بحذافيره، ووضع الورقة أسفل وسادته، ثم هوى على السرير، لكنّه لم ينعم ولو حتى بالنعاس!

... لأنّك لست حالمًا يا خامل!.. اللعنة عليك وعلى الأحلام، أريد أن أنام!.. اسمع نصيحتي.. سمعتها يا فقر ولم أغتنِ... لأنّك استهزأت بي عندما أخبرتك عن ربّة الأحلام... ليتني هزأت بكلامك فعلاً ولم أسمعه، مقام مثلك الاستهزاء... قلت لك ربّة الأحلام غير راضية عنك... اللعنة عليها ألف مرّة يا سيّدي لعلّها ترضى بذلك!... حبّي لك يا خامل يجعلني أتغاضى عن إساءتك، أقولها لك: اكتب خطابًا إلى ربّة الأحلام، ودلّها يا سيّدي. قل لها «عزيزتي ربّة الأحلام، أريد أن أنام».

كنس خامل كلام إبراهيم بأذنه، وانصرف عنه مستهينًا به، حتى ذلك اليوم الذي أجلس فيه ابن أخيه الصغير على فخذيه ونظرا سويًّا إلى السماء، وفي لحظة استهانة مماثلة كالتي صدّرها لإبراهيم، عمد إلى ورقة وقلم، وكتب فيها «عزيزتي ربّة الأحلام، أرجوكِ أريد أن أنام»، ووضع الخطاب أسفل رأسه، ثم مدّد

جسده على السرير فنام!

كانت سعادته غامرة في صبيحة اليوم التالي، وكافأ ناصحه بوجبة إفطار ثم غداء دسم.. وعندما عاد في المساء إلى بيته، في ميعاد النوم، كتب خطابًا جديدًا إليها، قال فيه: «عزيزتي ربّة الأحلام المتوّجة، أحبّك من كلّ قلبي، أريد أن أحلم اليوم حلمًا جميلاً كوصفك، عمري فداء رؤية حسنك وجمالك في أحلامي»، ثم مضى ساردًا كلّ ما فعله في ذلك اليوم، وطوى الخطاب ووضعه أسفل وسادته ونام، وفي الحلم: رأى نفسه يتصدّق على امرأة فقيرة، وبدلاً من أن يعطيها قرشًا أعطاها ـ دون أن يقصد ـ جنيهًا مذهّبًا، وعندما اكتشف ضياع الجنيه لم يحزن بل عاد إلى بيته هانئًا.

وفي ذلك اليوم، عندما كانت رئيسة ترتّب غرفة نومهما وتهندم الفراش، وأثناء تنفيضها الوسائد؛ وقع الخطاب على الأرض، ومن الأرض إلى يدها ثم إلى يد ابنها راغب، الذي أكّد لها ما فهمته نفسها من قراءة الخطاب أوّل مرّة: هذا خطاب عاطفي، هذه رسالة حبّ وغرام!

❊ ❊ ❊

الطريق الطويلة؛ النفق الضيّق بين بيتين؛ السلالم الطالعة النازلة؛ سلكت رئيسة طريقها إلى بيت «المشعوف».

في النفق الضيّق بين البيتين، حزّ الهواء البارد خدّها المكويّ؛ كاد يدميه، فلطفته بكفّها البارد أيضًا، يا للغرابة!! لم يعد هناك من شيء غريب: لا الخدّ المكويّ الذي يلهبه حزّ الهواء البارد، ولا الكفّ البارد الذي يلطّف ما ألهبه الهواء وألهبته من قبل ذلك كلّه يد خامل، ولا الآليّة البليدة التي اضطرّتها رئيسة لتلطيف خدّها.. يحزّه الهواء؛ تلطّفه بكفّها البارد، يمتصّ الأخير سخونة جلدها، تضعه، يحزّ خدّها الهواء، تنتظر كفّها ليبرد، تلطّف به خدّها، تضعه، ينكوي، يبرد، تلطّفه.. لا شيء غريب.. لا شيء غريب بعد الذي فعله خامل!

أيضرب الولد أباه بالحذاء؟!

أربعة أفراد فقط لا غير؛ خامل ورئيسة وراغب وسالم، هم من شهدوا الواقعة ويعرفون حقيقتها كاملة، لكنّ الذي تسرّب من تحت عقب الباب صار ملكًا لخيال كلّ من سمعه. يقول خامل إنّ ابنه ضربه بالحذاء فوق رأسه، ويقول سالم إنّ راغب قذف أباه بالحذاء، وتقول رئيسة إنّ ابنها كان يدافع عنها عندما اعتدى عليها خامل بالضرب، أمّا راغب فيصرّ أنّ حذاءه قد طار من قدمه بينما همَّ ليمنع أباه من صفع أمّه، فأخذ الحذاء من رأس أبيه موقعًا لهبوطه!

وحدها إكرام التي ردّدت دعاء مسعدة القديم ـ أنت يا راغب لا تعمر ولا تطمر! ـ قبل أن تحكي لابنها صالح كيف أن يتّخذ من ابن عمّه راغب مثالاً سيّئًا يضع النار بينه وبين احتذائه في أيّ من الأيّام! ومن فم صالح خرجت الواقعة إلى كلّ بيت وطأتها قدماه؛ الواقعة التي سيحفظها التاريخ: ضرب راغب أباه بالحذاء.

أيصفعني خامل على خدّي من أجل شرموطة؟!

قال «المشعوف»: دلّيني على أثر منه.. عندي الذي هو أهمّ من الأثر؛ عندي نفسه بالبيت.. لا أفهم.. في بيتنا قطّ وكأنّه روح خامل، ما إن يترك جسده البيت حتى يحلّ القطّ، ومتى حلّ خامل تلاشى القطّ... لعلّها صدفة... لا ليست صدفة على الإطلاق؛ إنّه يحمل ولعه نفسه بالخبص خارج المنزل؛ مالك تشكّك بالذي أقوله. أليس من المفروض أن تعرف كلّ شيء حتى وإن لم أخبرك به.. معرفتي وصيت معرفتي

هما من دفعاكِ للجوء إليَّ، سنرى ذلك القطّ إذن.. تريدني أن أجلبه لك... لا، أنا الذي سآتيكم.. كيف؟! لو انكشف أمرنا أضيع بين أهلي.. زيارتي لكم ستضيف صيتًا على صيتي، أو لنقول ستعرّفك من أنا.

في اللحظة التي هدّدته رئيسة بعزوتها الذين سينكّلون به، وقبل أن يهزأ بابنة الفقّي خامل، دخل عليهم سالم، وعندما لم تفلح مساعيه في تهدئتهما، عاد فأوصد باب الشقّة الذي كان مشرّعًا من خلفه، ـ إنّها المرّة الأولى في هذا البيت التي يوصد فيها باب ضدّ باب، سواء لستر شجار كان أم فرحة. خرجت الرسالة من عبّ رئيسة، وضحك خامل حتى بكى؛ يقول لأخيه هذا دواء الأرق القاتل.. أتحسب نفسك فتى سائح الشعر! أتكتب رسائل عشق يا موكوس.. ما في موكوسة غيرك يا رئيسة يا ابنة الفقّي... استهدوا بالخالق لمن هذه الرسالة يا أخي... وخالق الخلق إنّه دواء الأرق.. ردّ على أبيك الموكوس واقرأ الرسالة مرّة أخرى أمام عمّك يا راغب.. أثبت يا راغب، أتعوم في تيّار أمّك... هو أبي الذي لا يريد أن يصارحنا بالحقيقة ووجدت أمّي رسالته الغراميّة أسفل وسادتهما.. اتركنا وحيدين يا راغب لا صالح لك بالأمر.. راغب رجل أمّه بعد أن خاب أبوه ولن يفارقنا يا سالم... أسمعتني يا راغب؟... قل لي يا أخي، أفهمنا.. أرجوك، أتواعِدْ إحداهنّ، لِمَ يا أخي؟ أتريد أن تفضحنا، إذا كنت تبتغي الزواج فتزوّج، لكن لا تهزأ بنا أو بنفسك، أمن جديد سنعيد الكرّة يا أخي، لا ليس مجدّدًا بعد كلّ هذا العمر. ماذا؟ يتزوّج؟ طيّب، كان يسدّ بالداخل قبل أن

يفكّر في الخبص خارج المنزل. . احترمي نفسك يا امرأة، لقد سكتُّ طويلاً ابتغاء الحسنى لا غير، ويبدو أنّ عشرتي الطيّبة قد أوهمتك بأنّي نزق، وما عرفتِ بعد ما هي غضبتي. . (طم!)

* * *

ألا يمكن أن تزرع الأرض برسيمًا يا عمّ؟. لِمَ يا خامل؟. . كي تتعافى. لعلّنا نغيّر ما نزرعه من بصل وعنب. . . زراعة الأرض تقتضي مجهودًا يا خامل لم أعد أقدر عليه، ثم لماذا نغيّر المزروعات؟ إنّ المخزن بالجنينة لا يتعدّى الربع قيراط يا ابن أخي. . بالكاد نأكل من المزروع، ولن يتبقّى شيء لنبيعه.

هي ثلاث مرّات، عاد فيها خامل من القرية بالبصل وأوراق العنب؛ في المرّة الأولى سعدت رئيسة وسعد من بالبيت، وخرجت من بيتها أكياس البصل وأوراق العنب إلى بيوت العائلة تحمل الخير القادم من أرض خامل؛ وفي المرّة الثانية وجدت رئيسة أنّ البيت أولى من غيره بخير الأرض؛ وفي الثالثة قالت إنّ عمّه عبد الصمد يسرقهم، ويأخذ محصول الجنينة فيبيعه ولا ينوبهم منه غير الجْوالين.

أن يتاجر خامل في الإسمنت ليس بالأمر الجديد، كما أنّ الفارق ليس كبيرًا بين تسهيل بيع الإسمنت للغير وتسهيل بيعه لنفسه، بل إنّ الأخير أصعب. فتسهيل البيع للغير شغل خفيف، يحتاج خفّة في الحركة لا أكثر، بينما البيع مثل الرقود على البيض يتطلّب وقتًا ومجهودًا وصبرًا، والعائد المادّي منه لن يظهر جليًّا للعيان. قل إنّ خامل قد كسب سريعًا، ماذا سيفعل في البدء؟ سيضاعف تجارته لا ريب، ثم ماذا سيحدث؛ ستستقرّ تلك التجارة بالتأكيد، ومن ثم يظهر الخير أساور من الذهب حول ذراعيها، قد يأخذ الأمر وقتًا!

أمّا أن تكون هناك أرض يخرج منها الخير في أجولة تأتي إليها فتوزّعه أو تحجبه عن الخلق، هذا أمر بالتأكيد مثير وجديد بالنسبة إلى رئيسة، الأمر الذي لا بدّ أن ينتهي بها إلى سؤال: أين المحصول؟ أو إجابة: إنّ عمّك يسرقنا!

لكانت الحجّة في الإجابة أو نفي التهمة عن عمّه أيسر، لو لم يكن خامل ـ منذ غرَّب ناحية البلدة ـ يدبّ المشوار جيئة وذهابًا: مائة وخمسون لهذا، ومائتان لذلك حتى يتركوا السور يستقيم حول الأرض ومخزن الإسمنت... لقال لها إنّ عمّه الذي يجلس مع الفجر في الجنينة يرصّ الشاي بين البصل والعنب، بينما يترك المخزن بلا رقيب، يأمن كلّ أهل البلد على الإسمنت فكيف يسرق هو؟ كلّ ما يريده عمّي يا ابنة الفقّي سورًا يقيم ظهره بعد أن أقعده الزمن!

إذا كان هناك عائد حقيقيّ للمخزن لأضحى مؤونة لصبره على

المخزن؛ الرقود على البيض يتطلّب حرارة حتى يفقّس، والحرارة ربَت في الصبر لا الجَزَع، ومشروع كذلك له أربع سنوات إلى الآن ولا يزال يستلزم وقتًا كي تجني المكاسب من ورائه، لكنّ الحكومة ضدّه؛ إنّ الكذبة التي ابتدعها عندما كان يحدّث عبد السميع عن تغوّل الحكومة عليه ـ كلّما بنى سورًا هدموه لأنّها أرض زراعة ـ تحقّقت، رغم أنّ الأرض على ناصية طريق سريع، وعاجلاً أم أجلاً سيأكلها الطريق وتصير أرض مبانٍ، إلّا أنّ الحكومة تتغوّل عليه! وزوجته ـ كما ترى ـ ضدّه، حتى ابنه راغب ضدّه؛ فعيونه هو الآخر كانت مفتوحة على المدينة، وعودة أبيه إلى البلدة في ظنّه ليست إلّا غباءً وقصر نظر، فالأَوْلى لأبيه شراء أرض أخرى بالمدينة وبيت جديد.

هو لا ينام يا فتحي.. يعاني الأرق وخيبة الأمل.

كأنّ السرير بل أسرّة البيت كلّه يا إبراهيم من الصخر وكأنّ جنبيَّ من الحطب، أتقلّب على السرير كما الحطب يتساقط على الصخر؛ فأستيقظ، وإذا عاد السرير إلى قطنه وقماشه وعاد جنباي إلى لحمهما وعظمهما، لاعبتْ عقلي الأخيلة والأحلام، فأصير جسدًا ميتًا برأس مستيقظ، وكأنّي دلقت في جوفي كنكة حشيش!... اسمع كلامي يا خامل؛ كلّ ليلة وقبل أن تنام اكتب خطابًا إلى جنّيّة الأحلام تفصّل فيه كلّ أحداث يومك، ثم ضعه أسفل رأسك، وستنام... بسيطة سأفعل ذلك!

في المرّة الأولى التي قرّر فيها خامل أن يكاتب جنّيّة الأحلام، قال لها فيما قال: زوجتي تضيّق الخناق عليّ إن ذهبت

إلى عبد السميع، حتى إنّ عبد السميع يريد أن يترك المنطقة ويعود إلى بلدتهم بعد أن يبيع منزله، ليتني أستطيع شراء ذلك المنزل!

وعندما لم ينم خامل، ظنّ أنّ وصفة صديقه لم تجدِ معه نفعًا، فكنس كلام إبراهيم بأذنه، وانصرف عن لعب العيال هذا، حتى ذلك اليوم الذي أجلس فيه ابن أخيه الصغير على فخذيه ونظرا سويًّا إلى السماء، وفي خطفة إنارة من ذهنه عقد النيّة على بيع الأرض وشراء بيت عبد السميع، ومن فرط طمأنينته لقراره، تقدّم باستهانة إلى ورقة وقلم، وكتب إلى الجنّيّة: عقدت النيّة على بيع الأرض وشراء بيت عبد السميع، نعم سأبيع الأرض؛ سنتان كاملتان لم أستطع أن أقيم حجرًا فوقها، ثم نصف سنة أخرى حتى بنينا حجرة على الشارع دكّانًا لبيع الإسمنت، أمّا باقي الأرض، والتي كان من المفترض أن نقيم عليها المخزن. . . أقول لكِ كلّما بنينا سورًا هدّوه، فكيف سنبني لها سقفًا، المتجر بالكاد يحتمل خمسة أو ستّة أطنان، يعني نبيع بالتجزئة للناس، وهذه قرية فقر يشتري الناس فيها بالجيرة والشفعة، يعني بالقسط يا مليكتي. . قال عمّي يجب ألّا نترك الأرض جرداء لنزرعها بدلاً من أن يسرقها الجار فيضمّها إلى أراضيه، والله لقد سامحت عمّي، شاف من الزمن الكثير، أقعده الزمن وكسر شوكته ولم يجد ولدًا يصلّب همّته، لم يجد غير السور الذي بنيناه لإحاطة الأرض ـ بعد أن دفعت الدم من قلبي للحكومة رشاوى ـ يقيم عليه ظهره مع كلّ فجر، يرصّ الشاي بين البصل والعنب الذي يزرعه ويهتمّ به، وكلّ ما أذهب إلى هناك أجد الدكّان فارغًا بلا رقيب، يقول إنّ الناس لن تسرقنا، ثم تتّهمه زوجتي بعد ذلك أنّه هو الذي يريد

أن يسرقنا! على كلٍّ سأرضي رئيسة وراغب، لعلّ طنينهما في أذنيَّ يقلّ، لكنّي لن أخبرهما.. بذلك، ستكون مفاجأة للجميع! وبالرّغم من ذلك، أخبرك أنتِ بها قبل الجميع! والآن يا عزيزتي ربّة الأحلام، أرجوكِ أريد أن أنام.

* * *

الطريق الطويلة؛ النفق الضيّق بين بيتين؛ السلالم الطالعة النازلة؛ سلكت رئيسة الطريق مجدّدًا إلى بيت «المشعوف».

يعني مرّ اليوم يتلوه آخر ولم تأتِ؟... من قال ذلك؟! إذا لم أكن قد أتيت فكيف إذن اشتريت الزبد أوّل من أمس؟ لم أشتر لا زبدًا ولا جبنًا لا أمس ولا اليوم الذي قبله!... ذلك لأنّها لديكم بالفعل ولم ينفد مخزون الشهر منها، لكنّك لم تشائي أن تكسري بخاطر «خير الله» بائع الزبد الذي جاءكم في غير موعده، قلتِ لنفسك لعلّه محتاج إلى المال، فاشتريتِ منه عسلاً عوضًا عن ذلك!.. غريب! كيف علمت بالأمر.. لأنّني أنا الذي قدمت إليكم حاملاً الزبد والعسل!.. لا بل عمّ خير الله الذي جاء!... أنا الذي جئت. حتى إنّ اللحم المحروق الذي قدّمتِهِ لي على أنّه مشوّح، لا زال عالقًا بين أسناني حتى اللحظة، أَوَلَمْ أخبرك أنّ زيارتي لكم ستضيف صيتًا على صيتي؟ ألا زلتِ متشكّكة في

قدراتي؟... حاشا وكلّا! اعذرني سيّدي المشعوف، لست إلّا جاهلة وغبيّة... لا عليك! غدًا سيدخل عليك خامل والقطّ معًا، وسيجتمعان في البيت لأوّل مرّة.. وستقضي مسألتك!

* * *

«يذكّرني وجهك بوجه لا يمكن نسيانه، وهل ينسى الحبيب وجه حبيبه»؟ ماءت له القطّة، التي بدا وكأنّ فتحي يراها لأوّل مرّة على سلالم البيت، كانت كصدر دجاجة أبيض ومكتنز باللحم. أولته ظهرها وسارت وكأنّ ذلك الصدر ينزّ الدهن منه ويسيل، فيترك خيطًا زئبقيًّا لامعًا اجتاحت رائحته أنفه وحملته طائرًا على مسار ذلك الخطّ نحو تلك التي تتأرجح أمامه رافعة ذيلها، فطار وراءها بدون تردّد.

ما إن لمحتهما رئيسة يسيران على هدى العشّاق، حتى قذفتهما بمداسها ففرّا هاربين إلى السطوح، وحين اختفيا عن بصرها سمعت وقع أقدام خامل على السلّم.

لم يكونا يتحدّثان على الإطلاق منذ حادث الشبشب، لذا لم تسأله لماذا عاد إلى البيت باكرًا على غير عادته، وهو بدوره لم

يسأل على الطعام. اكتفى بأن دلف إلى غرفته فأبدل ملابسه وأخرج منها حزمة أوراق، ثم غادر المنزل.

ثلاثة أيّام بين القرار والمضي في تنفيذه، لم يستطع فيها خامل أن يكبت جموحه نحو التهليل في أرجاء بلدته وركاويها عن بيعه الدكّان بالجنينة وشراء بدلاً منها أرضًا أخرى بالقرية! لم يحدّثهم عن نيّته في شراء بيت عبد السميع، فذلك في عرفهم ليس مدعاة لمفخر، فالفخر في حالته ـ هو من يسكن في المدينة ـ أن يشتري طينًا أو أن يقيم بيتًا في قريته وليس العكس.. طيّب لمن ستبيع، كلّكم تعرفون أنّ الأرض مشمومة والحكومة لا تفتأ ترفع عينها عن أيّ قالب طوب يرتفع فوقها إلّا بالرشوى، وإذا كان الأمر غير ذلك ما كنت أبيعها أو كنت أعطيها لأيّ من أبناء العمّ.. أتضع عينك على أخرى... نعم أكثر من واحدة، لكنّي سأنتظر أن تنساني الحكومة قليلاً ثم أشتري الجديد، إنّهم يشمّونني شمًّا!... لكن لا بدّ لها أن تكون على شارع جديد إذا أردت بناء مخزنك.. بل سأبني دوارًا لنا هنا... أَوَحقًّا ستعودون يابن العمّ؟... لا لن نعود ولكنّه ـ فقط ـ كي نرتاح فيه إذا جئنا لنزور البلد!

بالرّغم من أنّه قد أطلق العنان للسانه رهوان بين الآذان في البلدة، إلّا أنّه استطاع أن يمسكه عن مصارحة من البيت، وثلاثة أيّام في أرض الجوّافة ـ رغم احتلال الإسمنت كافّة جنائنها ـ ليس بالوقت الكافي لخبر ـ أيّ خبر ـ أن يدبّ الأرض ويقطع البحر إلى البرّ الآخر ليعرفه من هناك.

والآن وقد باع الأرض وقبض الثمن. يمكن لأيّ نفر بالقرية أن يخبرك أنّ خامل الذي هبط الطريق وسط ظلمة الليل إلى العبّارة عائدًا إلى بيته بأرض الجوّافة ـ وهو يحمل في صدره الأمان وفي نفسه النشوة ـ يمسك بيده كيسًا أسود يحوي ثلاثة أرباع ثمن الأرض وعقدًا ابتدائيًّا سيذهب ليسجّله غدًا حتى يتحصّل على باقي أمواله من المشتري.

أثبت، وقل ثبّت..

لم يشعر خامل بفوهة البندقيّة الثابتة في جنبه، إلّا عندما سمع اللصوص من خلفه يطالبونه بما في يده، فلم يكن يرى منهم غير أعين لامعة أضاءت الخوف في قلبه بين ظلمات الليل.

... أعطنا كلّ ما معك!

كاد خامل ليصدّق أنّها ساعة نحسه ويعطيهم كلّ ما حمل، لولا أن رأى حافلة قادمة على الطريق يضيء نورها الشارع من بعيد، فأيقن أنّها ساعة فرجه، فإنّ ساعة النحس إذا حلّت قد يضيع معها حتى بريق الخوف داخل النفس، لكن نور الحافلة أعاد الشجاعة إليه، فأبى أن يعطي اللصوص الكيس الأسود. وقبل أن تهدّئ السيّارة من سرعتها تلبية لاستغاثة خامل، وقبل أن يطلّ رأس السائق ليستكشف أمر الواقفين، أطلق اللصوص النار عليها ففرّت هاربة، فما كان من خامل إلّا الثبوت والمقاومة، وتصادف أن كان بين اللصوص خفيف قلبٍ، مرتعش بال، حديث عهدٍ بالشطارة، فسبق زناده زفيره وأطلق على خامل الرصاص.

* * *

غاب النهار كلّه وبلغ الليل نصفه، ورئيسة بالباب تنتظر خامل وفتحي، ليس أحدهما بل كلاهما يدخلان عليها سويًّا، وكلّما تأخّر الوقت فكّرت في «معًا» هذه؛ هل سيدخلان من عتبة واحدة، أم سيتواجدان سويًّا؟ ترى من يدخل منهما عليها أوّلاً، وهل إذ دخل أحدهما في أعقاب الآخر ستكون هذه «معًا» التي قصدها المشعوف... أي «معًا» والسلام يا ربّي! المهمّ أن تنقضي المسألة وتصير حياتي إلى مجراها الهانئ!

مَشوا به كثيرًا؟... لا يعرف! لكنّهم مشوا.

البحر ساعتها لم يكن زورقًا من فيروز، بالرّغم من أنّ خامل يحبّ لون «الفيروز»، ويحبّ أيضًا ـ مثل الناس ـ تسمية النيل بالبحر.

«النبي موسى، كان سيناويًّا بحقّ، يعرف متى البحر يجزر

ومتى يمدّ»، وخامل «البحراوي» الذي يرى النيل لآخر مرّة في حياته ضحك كثيرًا حتى بكى بعد أن ألقى اللصوص بجثّته إلى الماء.. جدّه الأوّل كان اسمه موسى، وهو شيخ منسر. كم حكت له «مسعدة» عن موسى الذي وزّع الرعب والرهبة على أهل القرية كما السماء توزّع الأمطار على الزرع.. حتى بعد موته!

تذكّر نفسه ذات ليلة، وكان لا يزال طفلاً، تأخّر قليلاً بعد العشاء. كان الوباء الدائر في تلك الأيّام «خطف العيال»، وفي تلك الليلة قابل بعض رسله، وما إن همّ أحدهم بمعاجلته من خلاف ولفّه بالجوال، حتى استوقفه آخر محذّرًا.. يدك والولد، ألا تعرفه! إنّه من أولاد موسى!

... جدّك يا خامل كان يسرق الغيط وغلّته ومواشيه بمفرده، ويفرّ إلى البحر، تنتظره هناك على شطّه عفريتة من الجنّ ـ كانت تحبّه ـ فتحمله وتشقّ به دون سفينة.

فضحك خامل حتى البكاء وأسلم جسده إلى الماء تشقّ جثّته البحر إلى البرّ الثاني.

* * *

وأمّا الآن فحانات العالم فاترة

ـ لماذا؟

ـ لقد حكيت كثيرًا إلى أن مللت!

ـ مللت من الحكي! لقد كنت في أوج حماستك حين أخبرتني بأمر الحكايات والجنّيّة، وكان ذلك ـ فقط ـ منذ لحظات!

ـ لكنّني الآن قد مللت!

ـ كنت أظنّك قد مللت الوحدة، لا الحكي والونس!

ـ وهل تعرف أنت كم بقيت وحيدًا؟ إنّها فقط ليلة، تلك التي جلستها إلى جواري تسمع منّي الحكايات! لقد صرت أعرف جميع النهايات يا فتحي. .أليس ذلك أكثر إيلامًا من الوحدة؟!

ـ . . . .

ـ . . . .

ـ . . . إذن، ماذا ستفعل؟

ـ سأصنع ركية نار!

ـ لماذا؟ هل تشعر بالبرد؟

ـ إنّي لا أستطيع الشعور بالبرد ولا بغيره، لكنّي أحبّ روائح ركايا النار، خاصّة التي تستمدّ نارها من الحطب ـ لا من الكرتون أو الفحم. . .

ـ وهل تشمّ؟!

ـ لا! لكن رائحة الحطب المشتعل تذكّرني بعمّي!

ـ . . . .

ـ دعني أحكِ لك حكاية يا فتحي: كان لي عمّ يحبّ النوم، رغم أنّه ينام في اليوم مرّتين فقط؛ في العصاري بعد أن يعود من عمله، وفي المساء كالناس العاديين، لكنه ينام! وليس من ينام كعمّي، فهو إن أفاء وأينع تفوح منه رائحة النوم كوردة ياسمين في فصل الربيع، طوال اليوم يفوح بالنوم، ورغم ذلك فهو نشيط إذا نشط، كأنّه انسلّ من خمود البراكين، وفي نهارات الشتاء، في الفترة ما بين إطفاء مواقد الغداء وإيقاد سبرتايات الألفة، حيث السماء رماديّة والونس عدوّ للشوارع، كان عمّي يدبّ الأرض جيئة ورواحًا بين أصدقائه!

كانوا أصدقاءً غريبين بالنسبة لي وقتها، حيث كنت في

السابعة من عمري ـ أزيد قليلاً أو أقلّ ـ، فهم إمّا أصحاب عربات نقل ثقيل، أو مخازن إسمنت، وكان يحلو لي مصاحبته في ذلك التجوال النهاري، ومن ركايا النار المصفوفة بطول الرصيف أمام كراجات السيّارات أو مخازن الإسمنت، أحببت رائحة الحطب المشتعل. وما ازداد حبّي لها، إلّا بسبب ذلك الذي وجدته حول النار!

كنّا ضواحي العزبة البحريّة حيث التجّار من العربان، والطريق خال إلّا من الحطب المنتصب شجرًا فوق الأرصفة. في وسط الشارع، جلست مع عمّي وأصدقائه حول ركيّة النار، وبينما كنت أعبث بإطار السيّارة الكبير الذي أجلس فوقه، وجدت ـ في ثناياه ـ مطواة قرن غزال! انتابتني قشعريرة الاكتشاف المشربة برذاذ السعادة والإحساس بالخطر، فوضعتها في جيب بنطالي ولم أعقب.

ظللت قابضًا يدي على المطواة طيلة الجلسة حتى نهضنا لنغادر، ولكنّني وبدافع من خوف طفولي سربلني ـ فجأة ـ من كعبيَّ إلى منبت الشعر في رأسي، عدت أدراجي للإطار، ومن دون أن أفتحها أو أتأمّلها حتى، أعدت المطواة داخله مرّة أخرى، ورجعت إلى المنزل مؤنّبًا نفسي لتركها! ومن يومها وأنا أصبّر نفسي بعودتي مع عمّي ـ في اليوم أو الأسبوع التالي ـ إلى هناك، فلسوف أجدها وآخذها لأحتفظ بها، لكن عمّي لم يأخذني إلى هناك مرّة أخرى، ومن وقتها وأنا أحبّ ركايا النار والشتاء، لعلّي أعود يومًا ما وأجد مطواتي!

تمّت

حكايات الحُسن والحُزن حدّوتة سرديّة تَعْبر بكَ النهرَ إلى الجنائن كي تجسّد لك حياةً من الخيال واللغة.. حيث «غريب» الإنسان الذي تحوّل إلى عفريت رغمًا عنه يختلق جنِّيَّةً لأحلامه، وحيث «مسعدة» تقود عالمًا من أهلها المشقّقة أرواحهم بحثًا عن حبّ أو حزنٍ أو فرح. فتصبح الأرضُ الجديدةُ ملجأً لحكايات تَتَحطّم ويُعادُ بناؤها باستمرار، رافضةً كلّ الأمانِ العادي المتاح...

هي مغامرةُ البحث عن الذاتِ الفرديّة والجماعيّة، وبعثٌ جديدٌ في أرض جديدة بفلسفة «الحُسن والحُزن»، وخيال يليق بأرض الجوّافة.

أحمد شوقي علي: كاتب وصحفيّ مصريّ من مواليد العام ١٩٨٨، صدرتْ له مجموعةٌ قصصيّةٌ بعنوان القطط أيضًا ترسم الصور. يعمل حاليًا محرّرًا ثقافيًا بمؤسّسة الأهرام المصريّة.

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت





تصميم الغلاف ريم الجندي